ماركسية العرب وانهيار السوفيت

جمال ربيع

حوارات مع :

إسماعيل محفوظ • بوعلي ياسين • برهان غليون
سمير أمين • سناء أبو شقرا • عصام خفاجي
فواز طرابلسي • ميشيل كامل • ميشيل كيلو
محمد كشلي • نسيب نمر

دار المشرق - المغرب
للطباعة والنشر والتوزيع

هـــذا الكتـــاب

«ماركسية العرب وإنهيار السوفييت» هو جهدٌ صحفي استغرق حوالي العام من الحوارات واللقاءات مع أبرز وجوه الثقافة العربية، تخلله البحث عن مدى إنهيار فكرة الاشتراكية نفسها، خاصة بعد سقوط منظومة الدول الاشتراكية.

هذه التجربة تجاوزت العمل الصحفي في محاولةٍ للوصول إلى تاصيلٍ معرفي وفكري يطمح إلى استنطاق ومراجعة العديد من المسلّمات و«البديهيات» الماركسية فكراً وايديولوجيا.

الأسئلة ماتزال قائمة: الماركسية في السؤال، وفي افق المراجعة!

أهمية هذه الحوارات تنبع من قدرتها على تصحيح الرؤى، ومراجعة المفاهيم وتشرّح تحت ضوء المسافة الجديدة بنية السلطة السياسية فكرياً واجتماعياً.

كتابٌ جدير بالقراءة، ومحاولة جدّية لضبط آليات تفكيرنا مع الأحداث المتعاصفة والمتتابعة قبيل الألف الثالثة.

ماركسيّة العرب
وانهيار السّوفييت

جمال ربيع

عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة
الطبعة الأولى: ١٩٩٣

صمم الغلاف: الفنان احمد معلا
الإشراف الفني: جمال الأبطح

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة لدار النشر

المحتويات

- المقدمـــة : جمال ربيـــع ٧
- اسماعيل محفوض : انفصال الماركسية عن منهجها ١٣
- بوعلي ياسين : نحو ماركسية عربية ٢٧
- برهان غليون : انهيار الترجمة الاجتماعية والسياسية للماركسية ٤٣
- سمير أمين : نهاية الحرب الباردة ... هي الحرب ٥٥
- سناء أبو شقرا : البديل لم يتضح ٦٧
- عصام خفاجي : تحسين شروط التبعية ٧٥
- فواز طرابلسي : العودة إلى ماركس ٩٥
- ميشيل كامل : العودة إلى رومانسيه الماركسيين الأوائل ١١٣
- ميشيل كيلو : الستالينية ليست هي الماركسية ١٢٧
- محمد كشلي : محدودية أية نظرية ١٤١
- نسيب نمر : تطوير النظرية ١٥٣

الماركسية
في أفق المراجعة

تبدو لوحة العالم اليوم غير كاملة: فمن إنهيار أوروبا الشرقية إلى إنهيار الاتحاد السوفيتي إلى إعادة توحيد المانيا على انقاض جدار برلين، وإنهاء الحرب الباردة، وازمة الخليج وحربه، إلى السيطرة شبه الكاملة للولايات المتحدة الأمريكية على معظم القضايا العالمية، إلى عقد مؤتمر السلام في الشرق الأوسط ومايستتبعه من مفاوضات، إلى التدخل في الصومال، إلى البوسنة والهرسك، إلى معاهدة ماستريخت، والعجلة مستمرة في التحرك.

هذه اللوحة غير الكاملة لما جرى ويجري خلال حقبة وجيزة جداً من التاريخ الأرضي، تعبِّرُ اول ماتعبر عن مدى السرعة التي تتناهب الأحداث، وتسارع التاريخ، وتتجاوز المفكرين والمختصين والأحزاب والدول مما فرض تاخرّاً في تجريد عناصر هذه اللوحة وتحديدها من اجل الوصول إلى مستوى التصور المفهومي لعالم الحقبة القادمة.

فالعالم مايزال حتى اليوم يراقب ويرصد كافة العناصر الواقعية من خلال هذا المشهد. مع إدراكه لغياب أو تحول الكثير من المفردات والمفاهيم المتجاوزة كالحرب الباردة، وحلف فرصوفيا، وسباق التسلح، والتعايش السلمي، ومنظومة الدول الاشتراكية،... الخ لتظهر على السطح تعبيرات جديدة كنهاية التاريخ، النظام العالمي الجديد، فشل الماركسية نظريةً وتطبيقاً.

وسط هذه العجاجة تتالق اليوم الديمقراطية الليبرالية كعصا موسى: بلسم كل الجراحات والاخفاقات، حلالة مشاكلنا ومبدّلة التغيرات لصالحنا دائماً ! وتنتشر في

العديد من الأدبيات والكتابات مداخلات ومقاربات في محاولةٍ للدفاع عن المادية وتطويرها أو الهجوم عليها.

لقد طرحت التحولات التي عرفتها المجتمعات الاشتراكية وأبرزت أسئلة حول مجموعة من القضايا النظرية والإيديولوجية تتجه نحو استنطاق المسلّمات الماركسية ومراجعتها.

ولقد أثر ماجرى في هذه المجتمعات على السلطة السياسية وعلى بنية الفكر المستند على الماركسية واللينينية، كتصور للتاريخ والمجتمع وكدليل عمل. مما خلق الحاجة إلى تصحيح الرؤى ومراجعة المفاهيم المرتبطة بالماركسية بعد أن أكدت تجارب البناء الاشتراكي عدم جدوى اطلاقيتها.

أما فيما يخص ماركسية العرب (أي ماركسية الأحزاب الشيوعية العربية، واليسار الجديد من جهة، وانعكاساتها على الساحة العربية من جهة ثانية) فما تزال مصرّة على النظر إلى اللوحة غير الكاملة لما جرى ويجري، من خلال قنونة التبدلات والتسارعات الحاصلة داخل مقولات دينية وايديولوجية جاهزة تنفي التاريخ والعالم.

ماركسية العرب هذه تبدو اليوم سلفية أكثر من أي وقت مضى، لن تقود في النهاية إلا إلى تأكيد انتكاسات طائفية، وارتدادت اجتماعية، بينما لم تكن الماركسية في يوم من الأيام مملكة أو نوعاً أو جوهراً قائماً بذاته، والذين فهموها على هذا الشكل إنما جعلوها لافتة وسحراً ودِيناً.

إن ماركسية العرب اليوم تعيش أزمتها، فهي لاتملك مقومات الجدل الداخلي، معرَّضةً طوال الوقت للتخشّب والانهيار، نتيجة بنية مؤسساتها الحزبية والسلطوية، وعلينا اليوم أن نتحرر من المواقف المسبقة والجاهزة، ومن النزعات الايديولوجية التبريرية، للقيام بمراجعة دقيقة وصارمة من اجل الاستعداد للمستقبل.

والمراجعة ليست نتاجاً ميكانيكاً لقرار سلطوي، بل هي تعبير عن تيارات عميقة تتحرك بزخم داخل الواقع التاريخي والاجتماعي. وهي فرصة للتخلص من الدوغمائية لتناول المواضيع على ضوء ما افرزته التجربة الاشتراكية عموماً، وتجربة الماركسيين العرب من معطيات واسئلة.

نقطة البدء: هي نقد وتعرية الطبيعة الشمولية للسلطات السياسية التي تحكم باسم مذهب كلياني مغلق، حيث يسود الاستبداد، وعبادة الفرد. واقصاء كل فكر مختلف.

نقطة اخرى هي: الكشف عن خطأ فكرة النموذج وذلك بهدف تحرير (المخيال السياسي) منها، خاصة وانها اسقطت في الوهم الكثير من التيارات الشيوعية، ويكفي التبصّر في التجربة السوفيتية لإدارك هذه النقطة.

اما بخصوص العلاقة بين الثقافة والاحزاب الماركسية او السلطة الاشتراكية، فلا بد من الاقرار اليوم بأن المثقفين ليسوا ظاهرة هامشية، وان الثقافة ليست عنصراً

تابعاً وملحقاً بالفعل السياسي، وإنما هي سلطة ذات فعاليّة اكثر اتساعاً من خطاب الكوادر الحزبية.

إن الالتقاء التاريخي بين المجتمع والثقافة ياخذ شكل سلطة مستقلة، تلعب دور رافعة للتحولات في بنية سلطة الدولة الحاكمة على مستويات عديدة كحقوق وواجبات الأفراد والمؤسسات.

هذه الحوارات هي مساهمة في المراجعة المبتغاة كونها تجاوزت مستوى العمل الصحفي العادي، إلى مستوى التاصيل الفكري. أُنجِزَت خلال عام ١٩٩٢ ، على امتداد اشهره وهو عام حفِلَ بالتبدلات والتحولات العالمية.

اخيراً، إنها محاولة لإثارة الحوار، ووضع الماركسية في السؤال: سؤال المراجعة..

جمـال ربيـع
بداية ١٩٩٣

نشـرت الحـوارات الموجودة بين دفتي هذا الكتاب
ضمن المحور الفكري لمجلة (الحرية)

انفصال الماركسية عن منهجها

اســـماعيل محفـــوض

انفصال الماركسية عن منهجها

* انهيار الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي فيه، بعد الانهيارات التي حصلت في بلدان أوروبا الشرقية الأخرى خلال العامين الماضيين، صدم العديد من حملة الأفكار الاشتراكية في منطقتنا والعالم. ما هي برأيكم الأسباب التي أدت إلى هذا الانهيار؟ وهل كان هذا الانهيار حتمياً؟

** إذا كانت غالبية الأجوبة الصادرة عن الماركسيات السائدة تشير إلى الستالينية، ستالينية ستالين وخلفائه، فإني أسأل: هل هبطت الستالينية من الفراغ؟ أليس لها جذر نظري وجذر اجتماعي؟ أليست مولودة وفتية وهرمة عبر المعطيات التاريخية السوفييتية والعالمية؟ ودون انكار دور الذات، لكن هل الذات ذات ستالين أو ذات خلفائه تذوت البشر والمجتمع والفكر، وصولاً إلى الانهيار، دون أن تكون هناك أرضيات قابلة للتذويت؟ أين جدل الذات والموضوع؟ أين الشروط الموضوعية العنيدة التي تفرض نفسها على الذات؟ لماذا لا نرى، على سبيل المثال، في ستالين ـ القيصر «الاشتراكي» ـ جذره في القيصر ـ الاقطاعي الروسي؟! في انعدام قاع ديمقراطي تاريخياً لدى الشعب

اسماعيل محفوض كاتب، ومثقف سوري، له العديد من المقالات الفكرية الجادة في أكثر من دورية عربية.

الروسي؟! في تركيز المثقفين الماركسيين الروس على الجوانب الاقتصادية، الطبقية، المجتمعية، الثورية من الماركسية بدلاً من الجوانب: الديمقراطية، العقلانية، الفردية؟! في التقبل النفسي والتعود الاجتماعي لدى الجماهير الروسية على الديكتاتورية والشخصية الكارزماتية؟! ان لينين نفسه يلخص إلى حد كبير، ولا أقول تماماً مطلقاً، الثورة الديمقراطية في حل مسألة الأرض. أين الديمقراطية السياسية؟! أين المعطى التقني ـ الاقتصادي ـ الاجتماعي؟! أين التكوين الشخصاني للفرد؟! هل يمكن كذلك نفي العلاقة بين الستالينية واللينينية في الأرادوية والبيروقراطية والكليانية والروسنة والطبقوية؟! بل ألا يمكن الربط بين ستالين وبين ماركس ـ انجلز، مروراً بلينين في اقامة اللا توازن بين الفرد والمجتمع، وبالتالي تقليص حرية الفرد لصالح حرية المجتمع؟! على هذا، أقدر أن علينا أن نفهم الستالينية كظاهرة اجتماعية انفرزت، التواءً وقزملة وتبسيطاً، من اللينينية ـ الماركسية على المستوى النظري بالتأكيد، ان لينين كان يأخذ بالاعتبار الشروط الموضوعية، ويحسبها بوعي، وينطلق من جدل الذات ـ الموضوع باستمرار، إلا انه كان يعطي الذات الفاعلة: المناضل الروسي الحزب الشيوعي الروسي، البروليتاريا الروسية دوراً أكبر من قدرتها، أي انه كان يقدر دور الذات بمعيار المثقف الطليعي، المناضل وليس بمعيار جماهير، كتل عمالية وفلاحية، قوميات مستعمرة (بفتح الميم).

إذا انتقلنا إلى الشروط التاريخية الخاصة التي انفرزت منها الستالينية، على المستوى الواقعي يواجهنا سؤال: هل ثورة اكتوبر الروسية ثورة اشتراكية تقدمت تأزمت تراجعت انهارت، أم انها ثورة ديمقراطية بنموذج لا غربي فقط، كما يرى البعض، تحت أسماء اشتراكية معلنة؟ أظن ان ستاتيك المراحل الموضوعية لحركة التاريخ، كما قدمه ماركس كنموذج أوروبي ينتهي حتماً بالاشتراكية، هو وراء عدم تسمية ثورة اكتوبر ثورة اشتراكية، وإلا لماذا الابتعاد عن قراءة التاريخ ـ الممارسة؟ وإذ ليس بامكاننا انكار التأميم الشامل، التخطيط الشامل، ديكتاتورية البروليتاريا عبر دكتاتورية الحزب

الشيوعي، بدءاً من حصول البلاشفة عشية ثورة اكتوبر على أكثرية الأصوات في المؤتمر الثاني لمجالس (سوفييت) روسيا، تصفية الطبقتين القديمتين: الاقطاعية والبرجوازية، تقديم التضحيات الكبرى لتثبيت اشتراكية الثورة. كما ليس بإمكاننا تجاهل دور الحرب الامبريالية والحصار الامبريالي وفشل الثورات والنهوضات العمالية في اوروبا. ليس بإمكاننا انكار دور هذه الوقائع ووقائع أخرى جزئية كثيرة في فرض الاشتراكية في بلد واحد، بل في انتصار ستالين على تروتسكي وزينوفيف، وبالضرورة ان انتصار ثورة اشتراكية في بلد زراعي متخلف، اختطفت الحروب الأهلية والامبريالية معظم كوادره المتقدمة، يعاني المجاعات وافتقاد الأسواق وتلف المحاصيل وأدوات الانتاج، وهروب رؤوس الأموال والكوادر الفنية، بالإضافة إلى الافتقار في العقلية الاشتراكية والتنظيمات الاجتماعية المؤهلة لبناء الاشتراكية.. سينجم عنه بالضرورة اشتراكية مأزومة، اشتراكية تحمل في أحشائها مركب قصورها، ونمو هذا القصور باستمرار يتراكب مع هذا وبالتالي يؤزمه ويحوله، انتقال الحزب الشيوعي إلى السلطة، وادخاله تحت سلطة الشعوب المستعبدة قيصرياً، بعيداً عن كل رقابة وضبط، وفوق كل رقابة وضبط، لأن السلطة، ضمن أجواء الحصار والضغط والقصور، تصبح حماية ومعادل الثورة، حماية ومعادل الاشتراكية. بذلك، دخل الحزب مرحلة الانفصال عن الطبقة والجماهير، والغياب التدريجي لجدل الحزب ـ الطبقة والجماهير والقوميات اللا روسية. مما أدى عملياً إلى تشكيل دولة فوق وضع الطبقة، والجماهير والقوميات، دولة ترى في ارادتها ومصلحتها البديل عن إرادة ومصلحة الطبقة والمجتمع والقوميات، نتج عن هذا ايديولوجياً المفهوم الكياني ـ الاقتصادي ـ الطبقوي للاشتراكية، وانحصار مفهوم الاستلاب الإنساني باستغلال الاقتصادي ـ الطبقي فقط، وبالتالي تحديد الإنسان الكائن العامل بالإنسان الكائن ـ الانتاج بهدف الانتفاع والأكل، أي اسقاط الإنسان ـ العقل والهدف، والإنسان ـ الحرية والقيم الأخلاقية والخلود. من هنا، انبثقت الايديولوجيا التبريرية ـ النفعية . وقام مجدداً، بل وتعاظم الاستغلال الجديد والطبقية

الجديدة، فالبيروقراطية تولد الرأسمالية كل يوم، حسب تعبر لينين، وواقعياً، ازداد التفاوت في مستوى الدخل اضعافاً منذ الثلاثينات، حتى انه ارتفع منذ السبعينات إلى ١٧ مثلاً، أما الامتيازات والمنافع والنزعة السلطوية ـ الاستعبادية لعناصر الحزب الشيوعي. فقد أصبحت الحديث اليومي والجدالات الحامية باستمرار، وقد عبر ايتماتوف عن حالة الإنسان السوفييتي بالعبد المسلوب، وسانتيا غوكارييو بالإنسان الضائع، الهائم على وجهه.

على هذا، فإن التوقف في النمو، رغم التوظيفات الضخمة، كما صرح غرباتشوف، ليس مرده عدم الاعتماد على اقتصاد السوق، ولا إلى التخلف في استخدام التكنولوجيا المتقدمة، بل إلى سحق الانسان، استلاب حريته وارادته، تحويله إلى حيوان للأكل والانتاج، وعندئذ، فإن عدم قيام التوافق بين التخطيط واقتصاد السوق ليس إلا أحد التعبيرات، وكذا التخلف في استخدام التكنولوجيا المتقدمة، لأن التكنولوجيا المتقدمة تفترض الذاتية الإنسانية.

لقد اكتشفت ضرورة الاصلاح والتغيير منذ مرحلة ستالين، لكن من يقوم بالاصلاح والتغيير؟ وعلى أية أرضية يقومان؟ الامكان ضمن النظام السوفييتي، قائم داخل الحزب الشيوعي فقط، بحكم الغاء كل الأحزاب الأخرى، وبحكم استلاب البروليتاريا اقتصادياً وثقافياً وسياسياً وتنظيمياً، أي ان الاصلاح قائم ضد الحزب الشيوعي، الحزب السلطة، وهذه هي الاستحالة، من هنا تقزمت مشاريع خروتشوف الاصلاحية الجزئية المحدودة.

أما مشاريع لانج وليبرمان الاصلاحية ـ الاقتصادية فقد تحولت إلى منافذ رأسمالية وتوسع رأسمالي متصاعد، وعقلية رأسمالية، أي انها فتحت الباب للخروج من الأزمة، لكن على غير طريق الاشتراكية. من هنا جاءت الرأسمالية كحل بديل فرض نفسه في مرحلة غرباتشوف لحظة توقف النمو الاقتصادي، وإذا كان مستوى الضغط الجماهيري باتجاه الديمقراطية السياسية قد تجاوز الضغط الرأسمالي، بل وعليه نما وتعيش الضغط الرأسمالي، فإن هذا

يؤكد ان غياب الديمقراطية ضمن الشروط والمعطيات التاريخية، وما نجم عن هذا الغياب وارتبط به وتفاعل معه هو وراء الانهيار، ولم يكن دور الغرباتشوفية إلا دور المولدة الشرعية لهذا الانهيار، فانتهى دورها بانتهاء الولادة.

* ماذا يعني الانهيار بالنسبة للنظرية «الماركسية العلمية» أي الماركسية؟ وما الذي يمكن استخلاصه بالنسبة لمستقبل هذه النظرية؟

** انهيار التجربة السوفييتية لن ينعكس بالعمق والبعد الزمني. سلباً على الماركسية، بل سينعكس ايجاباً، وسيمنحها الغنى الديمقراطي والإنساني، وسيفسح في المجال لمراجعتها جذرياً على ضوء المعطيات الإنسانية والعالمية الجديدة، وإذا كان الضجيج الاعلامي ـ الامبريالي، ومن يسبح في بحره من منظرين واقتصاديين وسياسيين. يقرنون انتهاء الماركسية بانهيار التجربة السوفيتية، ويجدون صدى لضجيجهم، فإن هذا إلى حين زوال أثر الصدمة نفسياً وفكرياً، والعودة إلى قراءة التجربة السوفييتية وكل التجارب الاشتراكية المعاصرة قراءة نقدية ـ ماركسية.

إن الماركسية، قبل وفوق ان تكون نظرية علمية في الاشتراكية، ورؤية تاريخية، هي منهج مادي جدلي مادي تاريخي، منهج في قراءة التاريخ، انبثق من التاريخ، ويتصحح بالتاريخ نفسه: «علينا أن نخرج رؤسنا من التاريخ. لا أن نخرج التاريخ من رؤسنا». لذا لا تؤخذ كعقيدة أزلية أبدية، أو كرؤية ايديولوجية جامدة كي يخشى عليها من التاريخ وضعها خارج التاريخ هو قوقعتها هو نفيها. وهنا، بدلاً من تعقلها وتقييمها بما هي فيه على ضوء المتغيرات التاريخية، نقف في صف أعدائها، لذا لا يصح الحكم عليها من خلال تجربة بدت ملامح أزمتها منذ ١٩٢٤ ، وشخصت كبداية على يد لينين.

كان خطأ اعتبار نظرية الاشتراكية العلمية فيها، نظرية مطلقة، خارج الزمان والمكان، هذا تناقض مع المنهج. أي قانون هو تلخيص وتعميم

استقرائي وربط لواقعات عينية محددة، فيظل صادقاً علمياً طيلة الاستمرار الكمي والكيفي لهذه الواقعات. أما عندما يحصل تبدل في الواقعات، وهذه هي طبيعة الأشياء في الكون والمجتمع، تتبدل بالضرورة القوانين، وثم تتبدل النظرية بوصفها محصلة تركيب هذه القوانين، ليست المطلقية من النهج الماركسي، بل هي على النقيض من جدليته لقد ألحقتها به الستالينية من مصادر الفكر الميتافيزيقي، تحت اسم «الموضوعية الخالصة»، لذا لا خوف على مستقبل الاشتراكية العلمية عند مراجعتها ماركسياً بل الخوف عليها عند انفصالها عن منهجها الماركسي.

* الغرب الليبرالي اعتبر هذه الأحداث انتصاراً للرأسمالية واليبرالية، تعززه النجاحات الاقتصادية للبلدان الرأسمالية المتقدمة والتنامي المتواصل للقوى المنتجة فيها مستفيدة من الاكتشافات العلمية ـ التقنية. كيف يمكن تفسير استمرار تنامي القوى المنتجة في البلدان الرأسمالية التطورة، بالرغم من التناقضات والأزمات الدورية، في وقت تعثر فيه هذا التنامي في بلدان النموذج السوفييتي، الذي كان يوصف بانه اشتراكي؟ ألا يبدو ذلك مفارقة، إذا تذكرنا المقولة الماركسية الشهيرة بشأن تنامي التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في المجتمعات الطبقية؟

** أن استخلاصات الغرب الامبريالي عن انتهاء عصر الاشتراكية هي استخلاصات مغرضة، دعائية، لا تملك أي سند علمي، ما الذي يدحض ارتقاء البشرية إلى الاشتراكية؟ فشل تجربة أو نموذج لا يسقط القيمة. القمع الإكراه، أساليب الاستهلاك والفوضى والعبثية والأنانية، وتغذية العصبيات والروابط المتأخرة والضيقة لها مردودها الايجابي البعيد أكثر من مردودها السلبي القريب، ثم انها لا تسقط نزوع الإنسان إلى الحرية والتحرر، ولا تقعد المضطهد المستغل المستلب عن البحث لإقامة نموذج متجاوز، إن النجاح النسبي اقتصادياً في المراكز الامبريالية لم يحل مشكلة الافقار، وان كان قد نقله من الافقار المطلق إلى الافقار النسبي، ثم ان هذا النجاح النسبي

اقتصادياً دفع إلى مطالب اقتصادية اجتماعية أعلى، ذلك أن الثورة العلمية ـ التقنية طرحت مشكلة الاستلاب ومشكلات أخرى تتطلب تجاوز الميكانيزمات الرأسمالية، أضف إلى ذلك ان الأزمة الاقتصادية المزمنة لم تحل حلاً كاملاً، فما تزال، رغم كل التنظيرات والتخطيطات وتدخلات الدولة وضبطها، لا تحل إلا جزئياً ولفترات قصيرة الأجل، وواقعياً، لو بحثناً عن مصادر النجاح الاقتصادي النسبي، سواء ما تم على شكل زيادة مباشرة في الأجور، أو على شكل توظيفات علمية ـ تقنية أدت إلى زيادة إضافية في الأجور وإلى تركيب جديد للقوى المنتجة، لو بحثنا لوجدناه في نقل فائض القيمة من البلدان الأطراف إلى البلدان ـ المراكز بالدرجة الأولى، كما يرى العديد من علماء الاقتصاد، أي أن النجاح الاقتصادي النسبي في المراكز يقترن بالمزيد من الافقار في الأطراف، وهذا لا يعني النجاح عالمياً، بل يعني نقل حدة الاستغلال من موقع إلى موقع وتاريخياً تواكبت الزيادة الكبرى في حجم التوظيفات العلمية ـ التقنية اقتصادياً وعسكرياً مع ضغط الثورات الاشتراكية والقومية على الامبريالية كي تستطيع اقتصادياً التخفيف من ضغط بروليتاريا المراكز عليها من جهة وكي ترهب الشعوب عسكرياً بالقنابل النووية والصواريخ البعيدة المدى من جهة أخرى، بالمحصلة، فإن انبثاق الثورة الاشتراكية من قانون التناقض بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج، ما يزال صحيحاً، إذا نظر إليه بمنظار عالمي وشمولي، لا بمنظار قطري واقتصادي، علماً بأن نظرية الاشتراكية عند ماركس لا يحكم عليها من خلال هذا القانون وإنما من خلال قدرة منهجها على التحليل الملموس للواقع الملموس بحيث يرى الثقافة والسياسة كما يرى الاقتصاد. هذا ما مارسه ماركس ولينين وماو في تحديد انتقال موقع الثورة الاشتراكية من انكلترا إلى ألمانيا إلى روسيا، ومن العالم المتقدم إلى العالم المتخلف.

* هل يمكن القـــول، مع بعض المدارس الفكـــرية، ان الاشتراكية لا يمكن أن تبنى إلا في بلدان بالغة التطور الرأسمالي، وأن حرق المراحل ـ كما

حدث في الاتحاد السوفييتي ـ والنزعات الارادوية التي دفعت بهذا الاتجاه لا يمكن أن تغني عن ضرورة نضوج التطور الرأسمالي؟

** من الصعب البرهنة على شرطية الدرجة العالية من التطور الرأسمالي في بناء الاشتراكية، إلا انه مما لا ريب فيه أن الرأسمالية الصناعية تهيء لاسقاط الروابط الاجتماعية ألما قبل طبقية، والثقافات الخرافية والغيبية، وتوجد الأساس لتبلور طبقي ولتلاحم اجتماعي: وطني وقومي، ولتحريض نوازع الحرية والتحرر الفردي والمجتمعي. بيد أنه علينا أن نلاحظ أمرين هامين: أولاً ـ تراجع حدّة الاستغلال وتبرجز مراتب عمالية عدة في البلدات المتقدمة، بالمقابل تزايد حدة الاستغلال وتبلتر فئات برجوازية عدة في البلدان المتخلفة، والاشتراكية كنظام تحرر يرتبط أساساً بالاستغلال. ثانياً، إن أزمة النموذج السوفييتي والنماذج الأخرى لم تكن قائمة في التطور التقني العالمي وأسلوب الانتاج الرأسمالي، وانه لم يسقط في العشرينات والثلاثينات عندما كانت درجة التطور التقني ضعيفة، والتراكم الرأسمالي في الحضيض، إنما سقط في أول التسعينات عندما تقدم أشواطاً في التطور التقني والثقافي، وتقدمت البيروقراطية في عملية الترسمل، إذا لاحظنا هذين الأمرين، بالإضافة إلى جملة أمور أخرى ثقافية ـ اجتماعية ـ سياسية ـ تنظيمية نقول ان شرطية التطور العالي رأسمالياً هي شرطية لا تاريخية، شرطية مبعثها الفكر النخبوي، المثالي، الغائب كلياً عن الممارسة والواقع الإنساني الحي، الذي يرغب ثورة انموذجية بلا تعرجات ولا مصاعب، أي مكانها المخيلة فقط.

أما حرق المراحل والأرادوية فقضية مختلفة، إذ أن الكولونيالية والامبريالية أدخلتا أسلوب الانتاج الرأسمالي إلى جميع البلدان، بما فيها أدغال القبائل الافريقية، وان كانت قد خلقت أشكالاً من النظم متكيفة معها، تركب فوقها وتتبعها. وبالضرورة، هذه الأشكال مفخخة امبريالياً بحيث لا تتيح لها التقدم الصناعي الحر، والتقدم الثقافي المطابق. هل يعني هذا ان طريق الاشتراكية مغلق بوجه هذه البلدان؟ من يستطيع الحكم على عدم قيام ثورات انعتاقية: وطنية وقومية تتحول إلى ثورات اشتراكية تحت وطأة الضغط

الامبريالية ومستلزمات التعبئة الجماهيرية؟ الوضعية الاقتصادية وحدها هي التي تنفي العمل السياسي العمل الثقافي، دور التنظيم والتعبئة دور الارادة الإنسانية الفاعلة، وتراهن على الأعطيات المشرنقة امبريالياً، تحت ذرائع التطور التدريجي، الموضوعية النضج، أي تراهن على فعالية البرجوازية المحلية المتكيفة امبريالياً، ولذا تتهم كل فعل ارادي بارادوي، وكل تقدم صراعي مع الامبريالية بحرق المراحل. لست بهذا الطرح ألغي دور الرأسماليات المحلية، بل أؤكده ضمن شرطية التحرر من الامبريالية: التوجه نحو التصنيع، الديمقراطية، السياسية، الثقافة العقلانية ـ الديمقراطية فالمسألة المحورية في الأطراف هي مسألة التحرر من الامبريالية وليست مسألة رأسمالية واشتراكية، ان التقدم نحو الاشتراكية، كما أثبتت تجارب البلدان ـ الأطراف، يجري عبر الصراع مع الامبريالية، ولا يشمل البرجوازية المحلية إلا عندما تكون أدوات امبريالية أو عقبات حراسة وعجز في وجه تقدم الصراع، وسقوط هذه التجارب لا يؤكد شرطية التطور التقني العالي راسمالياً، بل يؤكد شرطية الوعي الثقافي المتقدم والوعي السياسي المتقدم. وليس ضرورياً لايجاد هذا الوعي أرضية تكنولوجية رأسمالية عالية، فالشروط الموضوعية لوعي التحرر والتقدم توجد في المحرقة الامبريالية، وفي الصراع ضدها. هناك مصاعب موضوعية وذاتية جمة على هذا الطريق، لا حاجة لذكرها هنا، وهناك احتمالات نكوص، اجهاض، انهيار... كل هذا صحيح، غير أن المحرقة الامبريالية ستدفع باستمرار إلى النهوض، إلى المواجهة والصراع، وفي هذه العملية الصاعدة ـ النازلة، وهي عملية إرادية:

اجتماعية ـ سياسية ـ ثقافية قبل أن تكون اقتصادية ـ تكنولوجية، يتمدد الطريق إلى الاشتراكية. أي أن الثقافي ـ السياسي يسبق الاقتصادي ـ التكنولوجي ويخلقه كبداية وليس العكس، أما بعد البداية فهذا جدل تصاعدي آخر.

* وماذا عن العالم الثالث؟ وهل أصبح مهمشاً، وتحول الجدار الحديدي.

كما يقولون، بين الشمال والجنوب بدلاً من الشرق والغرب؟ وماذا يمكن أن يكون اسهام حركات التحرر والقوى التقدمية في «العالم الثالث» في مجال بلورة وتطوير ماركسية اليوم؟

** غريب طرح تهميش العالم ـ الأطراف. ان تهميش قطر أو قطرين لا يطرح سؤال التعميم، بل يطرح سؤال المصالح والظروف الامبريالية الاستراتيجية والاقتصادية في التهميش. أي شيء في ميكانيزم العمل الامبريالي يشير إلى التهميش؟ هل استغنت الامبريالية عن استيراد المواد الأولية وتصدير البضائع إلى العالم ـ الأطراف لتهميشه؟ هل استغنت عن استيراد العمال والأدمغة ورؤوس الأموال النفطية وغير النفطية، وعن استنزاف فائض القيمة من الاستثمارات الضخمة: الشركات المتعددة الجنسية وغير المتعددة الجنسية لتهميشه؟ ان الارتفاع إلى مستوى الثورة الصناعية الثالثة لا يقدم البديل لاستنزاف فائض القيمة ولحركة الاستيراد والتصدير، ولتدهور حدود التبادل، بل يقدم ضرورة المزيد من الاستنزاف والتبادل والتدهور، كما انه ليس بمؤشر حقيقي ارتفاع نسبة حجم المبادلات التجارية بين بلدان المراكز وبعضها لبعض وانخفاض نسبة حجم المبادلات التجارية بين بلدان المراكز وبلدان الأطراف، ذلك ان الانخفاض يرتد إلى ضعف القدرة الشرائية، وتراجع نسبة التوظيف في القطاعات المنتجة. وهذان يرتدان إلى المزيد من استنزاف فائض القيمة، وما اهتمام البلدان ـ المراكز بحل مشكة مديونية العالم ـ الأطراف وتراجع القدرة الشرائية إلا اهتماماً بحل مسألة الكساد الاقتصادي خشية تجدد كارثة فيض الانتاج.

لو كان هناك احتمال تهميش، لما ازداد تطويق الامبريالية الأميركية للعالم عسكرياً، والتدخل بشكل أو بآخر في أحداث كل الأقطار، بل لما كان سعيها حثيثاً لاقامة أنظمة شديدة التكيف والاستجابة لمصالحها.

إن انهيار ما كان يسمى بالمنظومة الاشتراكية يطرح تناقضات امبريالية جديدة: أميركية، أوروبية، يابانية. وهذه التناقضات لا تستهدف تهميش العالم ـ الأطراف، بل التصارع على نهبه، وإذا كان العالم ـ الأطراف يبدو في

هذه المرحلة هامداً، منفعلاً لا فاعلاً لظروف دولية ومعطيات بنيوية تكوينية، وبالتالي اجهاض وارتداد ثوراته الوطنية والقومية، فليس معنى ذلك انه مهمش. بل معنى ذلك احتمال تفجره مجدداً عبر احتدام التناقض بين الامبرياليات المتصارعة وتعاظم أزماته الداخلية، أي ان العالم ـ الأطراف سيحتل مستقبلياً واجهة الصراع السياسي المتوافق مع درجة تناقضه مع العالم ـ المراكز. هذا هو الهاجس الأكبر للامبريالية في تصارعها وتوافقها بعد زوال الاتحاد السوفييتي وانسحابه من ساحة الصراع الدولية، كيف ستتبلور استراتيجيات الصراع؟ كيف يدخلها العالم ـ الأطراف؟ أسئلة يجيب عليها الغد عبر تشكل النظام الدولي الجديد.

نحو
ماركسية
عربية

بوعلي ياسين:

نحو ماركسية عربية

* انهيار الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي فيه، بعد الانهيارات التي جرت في بلدان اوروبا الشرقية الأخرى خلال العامين الماضيين. صدم العديد من حملة الأفكار الاشتراكية في منطقتنا والعالم ماهي برأيكم الأسباب التي أدت إلى هذا الانهيار؟ وهل كان هذا الانهيار حتمياً؟

** يمكننا أن نذكر الكثير من الأسباب، وكلها أسباب حقيقية، إنما الخطر يكمن في أن تضيع العبرة، أي ان لانستفيد من التاريخ، برأيي، شخصياً، هناك سبب مركزي واحد تفرعت عنه أو توالدت أسباب كثيرة. هذا السبب كامن في طبيعة النظام الاشتراكي الذي قام في تلك البلدان، ومازال قائماً في الصين الشعبية وكوبا. فقد طبق الاتحاد السوفييتي منذ عام ١٩١٧ ، وعموم

بوعلي ياسين، مفكر وكاتب سوري، يقيم في اللاذقية له العديد من المؤلفات والأبحاث الفكرية والاجتماعية والأدبية اضافة إلى عدد من الترجمات من أهم مؤلفاته.

- **الثالوث المحرم - دراسات في الدين والجنس والصراع الطبقي.**
- القطن وظاهرة الانتاج الاحادي في الاقتصاد السوري.
- السلطة العمالية على وسائل الانتاج في التطبيق السوري والنظرية الاشتراكية.

المعسكر الاشتراكي من بعد، النموذج البلشفي في الاشتراكية، وهو الذي أسماه أصحابه «ماركسياً لينينياً» ودعوا له على أنه هو الماركسية، وأطلق عليه البعض لاحقاً اسم «الستاليني» و «موسكو في». هذا النموذج يقوم على نظرية، كان أفضل ما عبّر عنها هو كتاب «ماالعمل؟» للينين، وقد نشر لأول مرة في عام ١٩٠٢ . مما تقوله هذه النظرية هو أن الوعي الطبقي السياسي لايأتي الطبقة العاملة من داخلها، بل من خارجها عن طريق فئة المثقفين الثوريين، وهؤلاء ذوو أصول غير عمالية عموماً.

هذا عنصر وصائي في النموذج مقتبس من كاوتسكي: الوصاية على الوعي. يضاف إليها الوصاية التنظيمية والاحتكار التنظيمي. فالنظرية إياها ترى أن القضاء على الرأسمالية وإقامة الاشتراكية لا يكون إلا بالتنظيم الحزبي الصارم الذي يضم ثوريين ملتزمين محترفين. ديكتاتورية البروليتاريا، التي قال بها ماركس، تصبح في هذا النموذج ديكتاتورية ممثلين للبروليتاريا، هم القسم الأكثر تقدماً منها، الممثل بالطليعة، التي يمثلها أخيراً الحزب البلشفي. هكذا تُختزل الطبقة الاجتماعية إلى حزب واحد ينفي ماعداه من التنظيمات والأحزاب العمالية: باعتبار أن التنظيمات العمالية غير الحزبية مطالبية (اقتصادية) غير سياسية وبالتالي غير ثورية، مثل النقابات، أو لأنها تفتقر إلى الوعي الطبقي السياسي مثل المجالس العمالية، وباعتبار أن الحزب المعني يملك الحقيقة (الماركسية) وغيره باطل، أولأنه هو وحده يمثل البروليتاريا وغيره بورجوازي صغير أو غير ذلك من التوصيفات الانتقاصية. وهكذا تختصر ديكتاتورية البروليتاريا إلى ديكتاتورية حزب واحد، وديكتاتورية الحزب تؤول إلى ديكتاتورية اللجنة المركزية للحزب (أي قيادته)، كما تنبات روزا لوكسمبورغ. إذ ذاك لا تكون ديكتاتورية البروليتاريا هي النقيضة للديكتاتورية البورجوازية، هذا يعني: ديكتاتورية طبقات الشغيلة المستغلّة والمضطهدة على الطبقات الاستغلالية التسلطية على طريق إلغاء الطبقية في المجتمع بعد جمعنة وسائل الانتاج والتبادل، عندئذ لا تكون هي في الحقيقة الديمقراطية البورجوازية التي تتجاوز الديمقراطية البرجوازية، كما فهمها

ماركس ورفاقه، بل الاجتماعية تكون هي الديكتاتورية بعينها التي تتخلف عن الديكتاتورية أو الديمقراطية البورجوازية. انقلب السحر على الساحر، كما يقال. فبينما أخذ النظام الرأسمالي البورجوازي بأحد قطبي الديمقراطية الاساسيين، وهو القطب السياسي، أخذ النظام الاشتراكي البلشفي بالقطب الاقتصادي، حيث انهى نظام الاستغلال وحرم بالمقابل كامل المجتمع، بما فيه البروليتاريا، من الديمقراطية السياسية. فانقلبت ديكتاتورية البروليتاريا إلى ديكتاتورية على البروليتاريا، كما عبّر بليخانوف. وهذا ما جعل الرقابة الشعبية مستحيلة. وخلق تربة خصبة للبيروقراطية والفساد، لا ضمان فيها حتى للديمقراطية الاقتصادية. والأخطر من ذلك انه، بهذه الهيمنة الحزبية التي ترفض كل شكل من الاختلاف بالرأي، تمنع الأجنحة داخل الحزب الواحد مثلما تمنع الأحزاب الاشتراكية الأخرى مثلما تمنع الأحزاب البورجوازية، وانه بهذا الفقدان لأي نوع من الرقابة الخارج ـ حزبية (وهي الرقابة الحقيقية) تعطّلت الأوليات (الميكانيزمات) في نظام تسيير الاقتصاد. كان الاقتصادي النمساوي شومبيتر قد برهن أن التخطيط الاشتراكي يحل محل السوق الرأسمالية في عقلنة الحياة الاقتصادية للمجتمع. بطبيعة الحال الغت السلطة الاشتراكية البلشفية مؤسسة السوق. لكن في نفس الوقت طُبّق نظام التخطيط في ظلها بصورة إرادوية وشكلانية كما طُبّق نظام الحوافز المادية والمعنوية بصورة بيروقراطية ومحسوبية، الأمر الذي حقّق من ثم زعم مفكري البورجوازية بأن الاقتصاد الاشتراكي غير قادر على الحياة لأنه لا عقلاني.

هذا النظام ليس ستاليني الأصل، وإن كان قد تجلى بأفظع صوره أيام ستالين. فالستالينية هي الاستمرار الأكثر عنفاً للينينية، هي الشكل القاسي والأحمق للبلشفية. بالتأكيد ماكان لينين يتوقع أن يصل نموذجه بعد سبعين سنة من التضحيات والانجازات إلى الارتماء برخص في أحضان الامبريالية الأميركية. بل لم يكن يتوقع وما كان ليقبل بالتطبيق الستاليني. حتى ستالين ماكان يظن أن قيادات حزبه ستكوّن مع الزمن طبقة متميزة فوق المجتمع. لتقود في النهاية بحكم مصالحها وبكل وعيها الطبقي المجتمع السوفييتي

والمجتمعات المرتبطة بها من نظامه الاشتراكي إلى عدوّه النظام الرأسمالي. ومع ذلك لنتذكر، أنه، أيام لينين، وصل البلاشفة إلى السلطة تحت شعار «كل السلطة للسوفييتات» (أي لمجالس العمال والفلاحين والجنود)، وعندما سيطروا عليها، شلّوها وجعلوها أداة يسيّرونها، شكلية في تمثيلها وفي سلطتها. وعلى ايام لينين، جرى التخلص من حلفاء ثورة أكتوبر ١٩١٧ : يسار الثوريين الاجتماعيين، الجماعات الأنارشية (الفوضوية). كومونة كرونشتات. كذلك في عهد لينين (١٩٢١) الغيت الأجنحة في الحزب: المركزية الديمقراطية، المعارضة العمالية. . . وعندما جاء ستالين وصل الأمر إلى إلغاء الأشخاص المخالفين أنفسهم بالفصل من الحزب والعزل من المنصب والنفي والسجن والاعدام: ادزينسكي، شليابنيكوف، تروتسكي، كامنييف، زنوفييف، بوخارين وغيرهم. فأصبحت الديكتاتورية فردية، تتمثل في شخص الأمين العام، إمام الزمان المعصوم!. ولسخرية القدر أصبح في النهاية إمام الماركسية البلشفية الستالينية البريجنيفية هو يهوذها المدعو غرباتشوف.

أما بخصوص الشق الثاني من السؤال فإني مبدئياً لا أرى بصورة مسبقة شيئاً حتمياً في تطور المجتمعات. هناك دائماً احتمالات. الآن، بعد الانهيار، نستطيع أن نقول إنه كان حتمياً. وهذا ـ برأيي ـ ضحك على الذات. لأن كل شيء حتمي بعد حدوثه. حتى دينياً لا يمكن للبشر الحديث عن الحتمية بمعنى القضاء والقدر إلا بعد حدوثه، فالآتي يبقى في علم الله. إنما علمياً يمكن التنبؤ على أساس: إذا بقيت الأمور على ماهي عليه، باللاتينية ceteris Pariluis. هذا يعني: إذا لم تتغير العوامل الفاعلة وإذا استمرت مفاعيلها على نفس الاتجاهات الحالية. . . ماعدا ذلك تبجّح بمعرفة الشيء بعد حدوثه. أو تنجيم ينطبق عليه القول الشريف «كذب المنجمون ولو صدقوا». أنا شخصياً لم أكن أتوقع أن تنتهي البلشفية هذه النهاية المذلة، أي أن تنقلب بما يشبه السحر إلى نقيضها الرأسمالي. كنت أظن أن المجتمعات الاشتراكية لن تتخلى عن منجزاتها على صعيد الأمان الاجتماعي والاقتصادي وعلى الصعيد الثقافي

والجنسي والديني، مقابل الحريات السياسية البورجوازية المفقودة. كنت أظن أنها ستحافظ على مكتسباتها وتسعى أكثر فأكثر للحصول على تلك الحريات، في التعبير والتنظيم والاحتجاج الخ. اما أن تسرع بيديها وقدميها إلى نظام الاستغلال والانحطاط الاقتصادي والايديولوجي (القيمي)، أي إلى النظام الرأسمالي في شيخوخته البائسة غير الوقورة، فهذا مالم يخطر على بالي.

بالعكس، كنت أظن أن هذه الشعوب ستعمل على تحويل الاقتصاد البيروقراطي الحزبي، إلى اقتصاد البيروقراطي الحزبي، إلى اقتصاد تعاوني شعبي مخطط بالفعل. وكنت أرى في منجزات البيروقراطية الحزبية على صعيد الثقافة الشعبية على أرضية من الأمان الاقتصادي. هذه المنجزات التي وصلت إلى حد المشاعية الثقافية، كنت أرى فيها عاملاً هاماً من عوامل تقويض السلطة البيروقراطية الحزبية نفسها. لكن يبدو لي أن الذي ضرب بكل هذه التوقعات المتفائلة عرض الحائط. هو الفعل السلطوي الواعي للطبقات العليا في تلك المجتمعات الاشتراكية البيروقراطية، وهي على ماهي عليه من سلطان، بأن تتخلص من أزمتها كطبقة ونظام دون المخاطرة ببقائها كطبقة ونظام دون المخاطرة ببقائها كطبقات ممتازة فوق المجتمع، إزاء ذلك، وجدت نفسها أقرب إلى الطبقات الرأسمالية العليا منها إلى عامة شعوبها، فضحت بنظامها الاشتراكي البيروقراطي المتعثر، الذي لم تعد تستطيع قيادته بنجاح، مقابل نظام رأسمالي تملك أسباب التزعم فيه. فكما يقال: «دود الخل منه وفيه». كان ثمة ازدواجية في مرحلة الانهيار، أو بالحقيقة انفصام في الشخصية، فمن هيؤوا للانهيار، وسعوا فيه وحققوه هم عموماً نفسهم الذين كانوا يقودون المجتمعات المعنية. ممارستهم كانت في الحقيقة بعكس ظاهرها انتقاداً للذات وهجوماً على الذات وانقلاباً على الذات، إنما بعد الانفصال الدعاوي عن هذه الذات والتظاهر بانها ذات أخرى لا علاقة لهم بها. اظن انه لم تمر على البشرية مهزلة كهذه، إلا ربما ماكان من انهيار الامبراطورية الرومانية وسيطرة المماليك على الدولة العربية الاسلامية!.

* ماذا يعني هذا الانهيار بالنسبة للنظرية «الاشتراكية العلمية» أي الماركسية؟ وماالذي يمكن استخلاصه بالنسبة لمستقبل هذه النظرية؟

** لقد نوّهت بأن للماركسية كمادية تاريخية عدة صيغ، منها البلشفية. وهذا الانهيار يعني أنا لوصفة البلشفية قد انتهت صلاحيتها، يعني أن النظرية البلشفية قد انقضى زمنها، دون أن ننسى بأنها في البداية لم تكن دون نجاحات، وانها لم تهرم قبل أن تخلّف منجزات. لايجوز أن يكون موقفنا كما يقول المثل: إذا وقعت البقرة، كثرت السكاكين. إذن انتهى زمن البلشفية، بل عاشت أكثر من زمنها. كان يفترض ـ بنظرة مسبقة ـ أن تنتهي بعد الحرب العالمية الثانية، منذ وفاة ستالين، أو على أبعد تقدير في الستينات مع انفجار حركات التحرر في البلدان المتخلفة وقيام الثورة الثقافية في بلدان الرأسمالية الامبريالية المترافقة مع انبعاث وتجدد النظرية الماركسية.

للأسف لم تكن الأنظمة الاشتراكية والأحزاب الشيوعية تجاه تلك التي سميت وقتذاك «الماركسية الجديدة» أقل عداوة من الأنظمة الرأسمالية نفسها، فساهمت بقسط كبير في عزل الطبقة العاملة الغربية عن تلك الثورة، مثلها مثل أحزاب الأممية الثانية، ومنعت وصولها كماركسية أخرى (غير معروفة) إلى حركات التحرر الوطنية. أقول كان يفترض أن تنتهي البلشفية منذ الخمسينات والستينات، وذلك بالنظر إلى أن منحنى تطورها وصل وقتذاك إلى نقطة انعطاف، فاتجهت إلى أن تجلب لمجتمعاتها من الشقاء أكثر مما تحقق من السعادة، بتعبير آخر: بدأت تخلق لمجتمعاتها من المشكلات أكثر مما تحلّ لها منها. وأقول كان يفترض أن تنتهي بالنظر إلى وجود المرشد الفكري البديل وهو الماركسية الجديدة أو الماركسية الديمقراطية. الرأسمالية نفسها كان يفترض أن تنتهي بعد أن دمّرت مجتمعاتها ونفسها بنفسها في الحرب العالمية الثانية. لكن قصور البلشفية سمح لها بأن تنبعث من جديد بقيادة أحزاب الأممية الثانية ومساعدة الامبريالية الاميركية الفتية.

بخصوص المستقبل، لا أرى الآن أملاً للبلشفية، وإن كنت أتعاطف مع

الصين وكوبا ضد البريسترويكا الغرباتشوفية والرأسمالية العالمية. لا أرى مستقبلاً للماركسية الوصائية، المعيلة فكرياً والمتعالية على أصحاب القضية، ولا للماركسية الوصائية، المعيلة فكرياً والمتعالية على أصحاب القضية، ولا للماركسية المختزلة أو الممسوخة إلى تعاليم جامدة (دوغما)، حتى لو كانت هذه التعاليم مأخوذة حرفياً من ماركس، ذلك لأنه لا حاجة إليها، أما الماركسية كأداة علمية ليحقق البشر مجتمعهم الانساني المتآخي المتعاون فكل المستقبل لها، لن تموت إلا بموت الاستغلال والاضطهاد بين جماعات البشر أو بموت البشرية. ما تحتاجه البشرية من الماركسية هو علميتها، لأن الأهداف معروفة منذ القدم، ما تحتاجه هو التفسير العلمي للواقع الطبقي وتبيان الطريق العقلاني الأسلم للخروج منه نحو تحقيق الأهداف الانسانية الخالدة التي قال بها المسيح وماني والنبي محمد وأبو ذر وحمدان قرمط وتوماس مونتسر وبابوف وغاندي وغيرهم كثير: الحرية، العدالة، المساواة، الأخوة، التعاون، لاقامة المجتمع السعيد، لتحقيق الجنة على الأرض.

* الغرب الليبرالي اعتبر هذه الأحداث انتصاراً للرأسمالية، تعززه النجاحات للبلدان الرأسمالية المتقدمة والتنامي المتواصل للقوى المنتجة فيها مستفيدة من الاكتشافات العلمية التقنية. كيف يمكن تفسير تنامي القوى المنتجة في البلدان الرأسمالية المتطورة، بالرغم من التناقضات والأزمات الدورية، في وقت تعثر فيه هذا التنامي في بلدان النموذج السوفييتي، والذي كان يقال عنه إنه اشتراكي؟ ألا يبدو ذلك مفارقة، إذا تذكرنا المقولة الماركسية الشهيرة بشأن تنامي التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في المجتمعات الطبقية؟.

** نعم، تعدّ هذه الأحداث انتصاراً للرأسمالية وللامبريالية وللصهيونية، لكنها ليست انتصاراً لليبرالية. فالدول الرأسمالية لم تعد ليبرالية منذ وقت طويل. فأين الليبرالية التي ـ بالتعريف ـ تقول: دعه يعمل، دعه يمر؟ أين الليبرالية التي لا تتدخل فيها الدولة اقتصادياً، والتي يلعب فيها أرباب العمل

لعبة العرض والطلب في السوق الحرة لدرجة الفوضى وشريعة الغاب؟ الأنظمة الرأسمالية تحولت عن الليبرالية بنقلات متتابعة، خاصة بعد أزمة ١٩٢٩ ، وبالأخص بعد الحرب العالمية الثانية إلى رأسمالية احتكارية، أهم مالك احتكاري فيها هو الدولة، ومتعددة الجنسيات. . . لو بقيت الرأسمالية ليبرالية، لكانت ماتت منذ عقود من الزمن بأزماتها الدورية وحروبها العالمية. لكن الدور الفعال والترجيحي للدولة وللهيئات الدولية في الاقتصاديات الرأسمالية يخفف من حدّة الأزمات ومن آثارها التدميرية.

أصبحت العناصر غير الليبرالية في بنية الرأسمالية قوية، ومنها عناصر اشتراكية. قد يستغرب المرء هذا القول، لكنه واقع. ففي الرأسمالية المعاصرة دور فاعل للنقابات، وكذلك للأحزاب الاشتراكية، وحتى الشيوعية، ولادارات وهيئات حماية المرأة والعامل والمستهلك والحيوان، ولمنظمات حماية البيئة. الأجور، مثلاً، تتحدد بالتصارع والاتفاق بين أرباب العمل والنقابات والدولة. وهناك تعويض بطالة، وتأمين صحي، معاش تقاعد، وحماية أمومة وطفولة، وقيود شديدة على الشركات للحفاظ على البيئة من تلوث الجو والبحر والأرض ومن المخاطر التي تهدد الثروة النباتية والحيوانية. . . الخ. وكل هذا ليس من الليبرالية، بل وضد مصلحة الرأسمالي، مع الصالح العام، انما استطاعت الرأسمالية المعاصرة أو اضطرت أن تستوعبه، وحتى أن تعيش به. لذلك أقول، إن التنامي المتواصل للقوى المنتجة ليس من فضل الرأسمالية الليبرالية، بل من فضل الرأسمالية «المقنّنة»، حيث تتحدد حرية السوق (العرض والطلب) أو رغبات المستثمرين (أرباب العمل) بقنوات الدولة والنقابات والأحزاب والهيئات الاجتماعية الأخرى. بالاضافة إلى ذلك، استطيع القول، إن الفضل في تنامي القوى المنتجة في البلدان الرأسمالية يعود أيضاً إلى الظروف الخارجية، حيث ساهم اعداء الرأسمالية أنفسهم في انقاذ الرأسمالية، أو على الأقل في إصلاح أمورها وتحسين ظروفها. حركات التحرر، مثلاً، في البلدان المتخلفة حاربت الرأسمالية الاستعمارية والامبريالية سياسياً وتعاونت معها اقتصادياً، فقدمت لها مجالات استثمار

هائلة. وقد كانت الدول الرأسمالية أكثر ذكاء من الدول الاشتراكية، ففي تعامل الدول الاشتراكية مع الآخرين خضعت للقوانين الرأسمالية. وهذا تنازل طوعي للبرجوازية، استسلام لها في ساحة هامة من ساحات الصراع. هذا في نفس الوقت الذي خربت فيه الدول الاشتراكية بيديها ميكانيزماتها الاقتصادية، كما ذكرنا منذ قليل، بينما استطاعت الدول الرأسمالية أن تحافظ على الحد الأدنى من هذه الميكانيزمات رغم تدخلات الدولة والعناصر غير البرجوازية الأخرى. العامل الجدير بالذكر أخيراً بهذا الخصوص هو أن الدول الرأسمالية استطاعت بما كسبته وتكسبه من الخارج، سواء في تعاملها مع البلدان المتخلفة أو فيما بعد مع الدول الاشتراكية نفسها، ان تقدم تنازلات لطبقاتها العاملة، أن تحسن من ظروفها وترفع من مستواها الاقتصادي والمهني والعلمي. ثم أن اندفاع البلدان المتخلفة إلى التصنيع مقلدة ومتعاونة مع الدول الامبريالية نفسها، دفع هذه الأخيرة إلى الاهتمام بزراعتها وإلى الانتقال إلى مستويات أعلى من الصناعة، تاركة المستويات الأدنى لتلك البلدان. وهذا استدعى بالطبع الاهتمام المتزايد بالتقدم العلمي التقني، خاصة مع توفر الموارد لذلك. فالمقولة الماركسية بخصوص التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج ماتزال صحيحة وستبقى صحيحة، لكن وجود المنافذ الواسعة لحل هذا التناقض بسلام، كما بيّنا آنفاً، يؤخر مفعوله. ثم انها مقولة تنطبق على البلدان الاشتراكية (البلشفية) والبلدان المتخلفة، مثلما تنطبق على البلدان الرأسمالية. فيبدو أن هذاا لتناقض في البلدان الاشتراكية والمتخلفة لم يكن أقل منه في البلدان الرأسمالية، خاصة مع مرونة الرأسمالية المعاصرة ومع جمود الآخرين.

نعم، لقد انتصرت البرجوازية هذه المرة، ولكم انهزمت هي فيما مضى أمام الاقطاع!. هذا وقت الردّة. ولا يضير الشغيلة إلا مرحلياً أن يتراجعوا أمام البرجوازية، ليراجعوا أنفسهم ويرتبوا أمورهم ولينطلقوا من جديد على ضوء، معتمدين على أنفسهم واعين لهدفهم عارفين بطريق مسيرتهم. نعم هو انتصار للرأسمالية، وأنا أرى أن أي نظام اشتراكي سيقوم في المستقبل

سيخطىء خطأً قاتلاً، إن دخل في تنافس اقتصادي مع البلدان الرأسمالية، كما فعلت بلدان الاشتراكية البلشفية. ذلك لأن الرأسمالية الامبريالية تستغل العالم وتنهبه، فقسم كبير من مواردها ليس من عرق جبينها، وهي ترى ذلك مشروعاً، بل ومرغوباً. في حين لا يجوز لنظام اشتراكي أن يستغل البلدان الأخرى، لأن هذا يتعارض مع طبيعته. بالتالي، الانسب والأسلم أن يكون التنافس أو الصراع ايديولوجياً وسياسياً وليس اقتصادياً، مع الاعتراف التام والتصريح الواضح بعدم اهتمام النظام الاشتراكي المعني بالتنافس الاقتصادي مع النظام الرأسمالي، لأن المال الحلال أقل وأصعب من المال الحرام، لكنه أطيب. وإذا أمكن بذلك حرمان الرأسمالية العالمية أكثر فأكثر من المال الحرام، أي من مجالات الاستثمار والأرباح، فانها عندئذ تخسر الحرب وتموت بنقص التروية. الجانب الايديولوجي هام جداً هنا، والصراع يكمن في مسألة ماهو الأكثر قيمة: قيم البرجوازية الاستغلالية النفعية الانانية، أم قيم الاشتراكية التعاونية الاخوية العدالية؟.

* هل يمكن القول، مع بعض المدارس الفكرية، ان الاشتراكية لايمكن أن تبني إلا في بلدان بالغة التطور الرأسمالي، وان حرق المراحل ـ كما حدث في الاتحاد السوفييتي ـ والنزعات الارادية التي دفعت بهذا الاتجاه لايمكن أن تغني عن ضرورة نضوج التطور الرأسمالي؟

**** كيف لا يمكن أن تبنى الاشتراكية إلا في بلدان بالغة التطور الرأسمالي وقد انطلقت البشرية في مسيرتها الحضارية من المشاعية البدائية، أي من قمة الاشتراكية وهي الشيوعية؟!. ماركس قال إن مآل كل رأسمالية إلى الاشتراكية، ولم يقل إن الاشتراكية لا تقوم إلا في المجتمع الرأسمالي. يبدو لي أن قضية النضوج الرأسمالي هذه تتحول إلى مهزلة مثل قصة الحتمية. فإذا نجحت الثورة الاشتراكية في بلد ما، قلنا انه كان ناضجاً، وإذا فشلت، قلنا أنه لم يكن ناضجاً، فما هو مقياس النضوج الرأسمالي؟ أنا شخصياً لا أسأل عن النضوج الرأسمالي، بل أسأل عن النضوج لاقامة الاشتراكية. ومقياسي هو اذا كانت قوة

العمل قادرة وعازمة على تسيير الاقتصاد والمجتمع بمستوى لا يقل عن المستوى السائد (حالياً في ظل البرجوازية)، فان المجتمع ناضج لاقامة الاشتراكية. ثم أن السؤال يستند إلى نظرية خلافية، يعتبرها مسلّمة، وهي نظرية المراحل الخمس لتطور البشرية: المشاعية البدائية، العبودية، الاقطاع، الرأسمالية، الاشتراكية. هذه نظرية فرضها ستالين، وهي ـ برأيي ـ غير صحيحة، على الأقل بالنسبة لنا في آسيا وافريقيا. نحن أصلاً لم نمر بمرحلتي العبودية والاقطاع، ولم نصل إلى التشكيلة الرأسمالية إلا بتأثير الاستعمار، بينما وجد الفكر الاشتراكي ووجدت التجارب الاشتراكية في بلادنا قبل حوالي ألف سنة (القرامطة مثلاً). أنا أعتقد أن الرأسمالية لن تنضج أبداً لدينا، لأنها في غير بيئتها، فهي مستوردة. اذن، هل سيتوقف التاريخ عندنا؟.

إن ما حدث في الاتحاد السوفييتي ليس كما يتضمن السؤال. فالحزب البلشفي أراد هو بقيادته استكمال الثورة البرجوازية، ليتابع هو أيضاً على اثرها قيادة المجتمع لاقامة الاشتراكية. لم يكن المطلوب وقتئذ حرق المراحل، بل التعجيل بها بعد الاستغناء عن الطبقة البرجوازية. مشكلة البلشفية انها كما يحدث عادة في مثل هذه الحالات ـ استغنت عن الطبقتين المتناحرتين: البرجوازية والبروليتاريا. لذلك نحن لا نعلم الآن، ما إذا كانت الثورة الاشتراكية ستقوم في روسيا وتنجح لولا البلاشفة، أما ان روسيا كانت ستتابع مسيرتها البرجوازية الرأسمالية التي بدأتها في شباط ١٩١٧ . ثورة البلاشفة هي شكل من تدخل الطبقة الوسطى في الصراع. بين الطبقتين العليا والدنيا، وقيادة هذا الصراع. هنا تتجلى ارادويتهم، وليس في مكان آخر، تحديداً بأنهم وضعوا أنفسهم محل البروليتاريا وتصرفوا باسمها دون الرجوع إليها، معتبرين أنفسهم بحكم ثقافتهم عارفين بدونها وأفضل منها بمشكلاتها ومصالحها وأهدافها. النتيجة كانت اقامة اشتراكية الطبقة الوسطى المثقفة، وهذا بحد ذاته ليس ارادوية، لأن كل طبقة تسيطر، تقيم النظام الذي يناسب طبيعتها الطبقية، ضمن الظروف المعطية. لكن هذه الطبقة

الوسطى، بعد سبعين سنة لم تعد وسطى بل صارت عليا، فكان من الطبيعي أن تتحول إلى نظام يناسب في الظروف السائدة وضعها الطبقي الجديد.

* وماذا عن العالم الثالث؟ وهل أصبح مهمشاً، وتحول الجدار الحديدي، كما يقولون، بين الشمال والجنوب، بدلاً من الشرق والغرب؟ وماذا يمكن أن يكون إسهام حركات التحرر والقوى التقدمية في «العالم الثالث» في مجال بلورة وتطوير ماركسية اليوم؟

** العالم الثالث هو الذي همش نفسه، قبل أن يهمّشه الغرب الرأسمالي. فالطبقات الوسطى المتنورة التي قادت التحرر والتنمية في بلدان العالم الثالث بهرها الغرب الرأسمالي، فاعتبرت بكل غباء ودونية أن الحضارة هي هذا الغرب، في تقنيته كما في عاداته، في تنظيمه الاجتماعي كما في انحلاله القيمي. قلدته، ومن يقلد الناس يبقى أدنى قيمة ممن يقلده الناس، بل أن المقلِّد لا يرقى أبداً في أي مجال إلى مستوى المقلد.

(بكسر اللام) وسرعان ما استفادت هذه الطبقات من سلطتها (الثورية) على الاقتصاد والمجتمع، وانتهزت، فاحتلت موقع الطبقة العليا في الهرم الاجتماعي لبلدانها. وبحكم مصالحها وارتباطاتها الجديدة تنكرت لتاريخ شعوبها وثقافتها وناسها، وحرمت شعوبها مرحلياً من امكانية التحرر الاقتصادي والسياسي والثقافي الحقيقي، حتى وصل الأمر بالطبقات العليا لأكثر البلدان المتخلفة أن تستقبل الامبريالية بالزينات، وان تحتمي بها من شعوبها، وهي التي قبلئذ بأقل من عقدين فقط أقامت الزينات احتفالاً بطرد هذه الامبريالية من بلادها. اذن، لا يمكن الحديث عن جدار حديدي بين الشمال الرأسمالي الامبريالي والجنوب الرأسمالي المتخلف. فالابواب مفتوحة، إنما للغازي من الشمال إلى الجنوب إلى الشمال. وهذا وضع لا تشابه بينه وبين الجدار الحديدي الذي كان مقاماً بين الشرق والغرب. الجدار الحديدي الاشتراكي المنسوب لستالين وضع لحماية الاشتراكية من التأثيرات الغربية الرأسمالية. أما الجدار الحديدي الجديد، إذا صحت هذه التسمية، فموضوع

من قبل الامبريالية لمنع الجنوب من تجاوز كبوته الحالية والوقوف ثانية موقف الند من الدول الرأسمالية الصناعية. ولماذا ننظر تلك النظرة الاستنكارية إلى الجدار الحديدي الذي اقامه ستالين وماو تسي تونغ وغيرهما تجاه الغرب؟! فنحن بذلك نردد دعايات الغرب نفسه. وأنا لا أظن أن بلدان التحرر الوطني كانت أخطأت لو أقامت في الخمسينات والستينات سور الصين تجاه الغرب. ويجدر التساؤل، أما كنا أكثر سعادة، لو انحرمنا منذ البداية من وسائل الرفاه والمتعة الغربية، وبذلنا مواردنا كاليابان في اقتباس وتطوير التكنولوجيا الانتاجية في الزراعة والحرفة؟ تبدو لي وسائل الرفاه والمتعة وموادها المستوردة من الغرب احصنة طروادية تستعبدنا من الداخل، تغربنا عن أنفسنا وتقضي على عناصر المقاومة في جوانا. إنها «السيدا» ـ «الايدز» الحضارية التي بعثها لنا الغرب قبل «السيدا» الفيروسية. ومن يلحق البوم، يدله على الخراب!.

أما بخصوص اسهام حركات التحرر والقوى التقدمية في العالم الثالث في مجال بلورة وتطوير الماركسية اليوم، فانا احصر حديثي بنا نحن العرب وأرى أن نقوم بايجاد ماركسيتنا (أي اشتراكيتنا)، كما وجد ماركس وانغلز ماركسية الغرب. هكذا كان رأي غارودي، وقد سفّهوه وقتذاك. إن قوانا التقدمية فعلت فكرياً ما فعلته القوى الكومبرادوية اقتصادياً في هذه البلدان، استوردت فكرها ووعيها ونظرياتها وبرامجها وتنظيماتها. لقد كان ماركس أوروبياً، وما كان له وقتذاك سوى أن يكون أوروبياً. حتى المسيح اوربه الغرب قبل أن يؤمن به. فما بالنا نلغي كل تاريخنا الفكري ونأخذ بماركس وحده، مهما كان هذا الرجل عظيماً وعبقرياً، بالاحرى نأخذ به مفسراً روسياً أو صينياً أو اميركياً لاتينياً؟ إذا اردنا ايجاد ماركسيتنا (اشتراكيتنا العلمية)، علينا أن نقوم بما فعله ماركس ورفاقه، متسلحين مثلهم بالأدوات العلمية. فنعيد دراسة تاريخنا وتراثنا وثقافتنا الحالية، وبنانا وأوضاعنا الاجتماعية الاقتصادية والفكرية، والمؤثرات أو المعيقات التراثية والخارجية المعاصرة، نحدد العوامل والعناصر الفاعلة واتجاهات مفاعيلها، فنستشرف المستقبل،

ونضع برامجنا وخططنا وتنظيماتنا بناء على التصورات التي توصلنا إليها وعلى النظريات التي خرجنا بها من هذه الدراسات.

انهيار الترجمة الاجتماعية والسياسية للماركسية

برهـــان غليـــون

إنهيـار الترجمـة الاجتماعيـة والسياسية للماركسية

* انهيار الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي فيه، بعد الانهيارات التي حصلت في بلدان أوروبا الشرقية الاخرى خلال العامين الماضيين. صدم العديد من حملة الأفكار الاشتراكية في منطقتنا والعالم. ماهي برأيكم الأسباب التي أدت إلى هذا الانهيار؟ وهل كان هذا الانهيار حتمياً؟

** باختصار، أعتقد أن الأسباب الرئيسية التي أدت إلى انهيار الاتحاد السوفييتي تكمن في اخفاق النظام السياسي في خلق الشروط النفسية والثقافية والمعنوية الضرورية لاحداث الثورة التكنولوجية والعلمية، التي تتطلب الكثير من المبادرة الانسانية ومن الحرية ومن القدرة أيضاً على فهم التحولات العالمية الكبرى، وعدم امكانية الاستمرار اذن في التقدم بالمشروع التنموي والمشروع

برهان غليون كاتب ومفكر سوري يقيم في باريس. له العديد من المؤلفات الفكرية الهامه.

من أهم مؤلفاته: - بيان من أجل الديمقراطية.
- اغتيال العقل.

الحضاري.

إن كل نظام يظهر عجزاً عن استيعاب التطورات الحضارية والدفع بها ينهار، مهما كانت الايديولوجيا التي يبنى عليها وبهذا المعنى كان انهيار الاتحاد السوفييتي حتمياً بقدر ما تحول النظام السوفييتي إلى شرنقة تغلق الاتحاد السوفييتي أمام تيارات التطور والتقدم الكبرى العميقة، وتخنق الفرد السوفييتي، أي تخنق حرية الانسان والحافز لدى الانسان للعمل وبذل الجهد. النظام السوفييتي كان قوقعه تجمد العقل وتجمد المجتمع، ونتيجة لذلك كان هناك جمود لأية حركة وديناميه تقدم حقيقية. وبالتالي افلاس النظام في المنافسة الدولية، انهار لأنه أفلس في المنافسة الدولية. ولم يعد لديه امكانيات اخرى للاستمرار، فاعلن عدم قدرته وتنازل.. اذن كان هذا الانهيار حتمياً دون شك.

* ماذا يعني هذا الانهيار بالنسبة للنظرية «الاشتراكية العلمية»، أي الماركسية؟ وما الذي يمكن استخلاصه بالنسبة لمستقبل هذه النظرية؟

** انهيار التجربة السوفييتية، وتحديداً النظرية «الاشتراكية العلمية» يعني بالتأكيد انهيار الايمان والمصداقية لهذه النظرية أو للماركسية كما تجسدت في ذلك النظام الاجتماعي. الماركسية كفلسفة هي حاجة أخرى.. ولكن الانهيار كان انهياراً للترجمة الاجتماعية والسياسية للماركسية، أي لما يمكن أن نسميه اللينينية، والستالينية وحتى التروتسكية. انه انهيار لعملية تحويل الماركسية كفلسفة إلى نظام اجتماعي وسياسي، أي تحويلها من منهج نقدي إلى عقيدة أو دين للدولة والمجتمع. هذا ما اعتقد انه هو الانهيار الحقيقي، وهذا هو أيضاً نهاية حتمية للماركسية كايديولوجيا دينية أو كايديولوجيا نظام ماالذي يتبقى من الماركسية في هذه الحالة؟ يتبقى منها أصلها، جوهرها، والذي هو نهج يعبر عنه كمنهج من مناهج النقد الجذري والعميق والرؤية التاريخية لمصائر المجتمعات البشرية، نقد لجوهر النظام الرأسمالي وللآليات التي يقوم عليها.

لا أعتقد أن الماركسية خسرت كثيراً فيما تعبر عنه من منهج نقدي للنظام الرأسمالي القائم. . وربما سوف تربح كثيراً في المستقبل كمنهج نقدي حيث يتأثر بها علماء اجتماع أكثر مما كان في السابق. ولكن لن تتحول، من حسن حظها، إلى دين اجتماعي أو إلى عقيدة دولة وهذا هو الذي يمكن سحبه على جميع العقائد الأخرى، وعلى جميع المذاهب العلمية والفلسفية التي تسعى إلى فهم الواقع، والتي حاولت أن تصبح ديناً اجتماعياً لنظام ما، فأفلست افلاساً مذهلاً وشكلت كوارث مذهلة على البشرية. النظرية القومية في أوروبا عندما تحولت. من خلال النظام الفاشي. إلى دين للدولة أيضاً أعطت كوارث كبيرة على البشرية. اذن. اعتقد أن هناك انهياراً لما يسمى «بالاشتراكية العلمية» مع الأخذ بعين الاعتبار أن مفهوم الاشتراكية العلمية هو تحويل الفلسفة الماركسية النقدية إلى نظرية أو إلى مذهب اجتماعي، إلى دين اجتماعي.

* الغرب الليبرالي اعتبر هذه الاحداث انتصاراً للرأسمالية والليبرالية تعززه النجاحات الاقتصادية للبلدان الرأسمالية المتقدمة والتنامي المتواصل للقوى المنتجة فيها مستفيدة من الاكتشافات العلمية ـ التقنية كيف يمكن تفسير استمرار تنامي القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في المجتمعات الطبقية؟

** النموذج السوفييتي كان يحمل في ذاته بذور افلاسه وتناقضه كما قلنا، لأنه كان متناقضاً حتى في تصوره للنظام الاشتراكي.

الماركسية هي نقد للاقتصاد، أو نقد المفهوم الاقتصادي للاقتصاد، بمعنى ادخال البعد الاجتماعي والانساني في التحليل الاقتصادي، ولذلك سماه ماركس نقد الاقتصاد السياسي، أي أن الماركسية حاولت ادخال البعد الانساني في التحليل الاقتصادي، من أجل تجاوز التناقضات الاقتصادية ومن أجل تجاوز الاستلاب الاقتصادي، لتحرير الانسان، ودفعه أكثر نحو السيطرة على مصيره ونيل حريته.

ولكن ما حصل في الاتحاد السوفييتي والتجارب «الاشتراكية» الأخرى، كان الاغراق أكثر فأكثر في تخفيض الحقيقة الاجتماعية إلى حقيقة اقتصادية

والتقوقع في التحليل الاقتصادي المحض، حتى أصبح الفكر. والماركسية. والأدب كله، مركزة في مفاهيم اقتصادية منحطة ومبسطة جداً. بحد ذاته الفكر السوفييتي، فكر الاشتراكية العلمية، كان انحطاطاً للفكر بشكل عام، وكان النظام الاقتصادي السوفييتي انحطاطاً للاقتصاد ككل، وبدلاً من أن يكون اندفاعاً في اتجاه تطوير ديناميات النقد الاقتصادي، تحول إلى كوابح امام هذا التقدم، ولعل جوهر هذا الانحطاط هو عدم فهم المضمون التقدمي لعلاقات السوق بما تشكله من علاقات توازن حي ومتبدل ومتجدد، وبما تخلقه من شفافية بين العرض والطلب، وبين الجهد والعمل والاجر. باعتقادي أن الاقتصاد الحديث الصناعي يحتاج إلى علاقات السوق الاساسية، والمفروض السيطرة على علاقات السوق وليس الغاءها وقد تحول الالغاء إلى قتل لدينامية التطور الصناعي والاقتصادي بشكل أساسي.

وهل يعني هذا انتصاراً للنموذج الليبرالي للرأسمالية. . انتصاراً للرأسمالية لا. لأن الذي انهزم في الاتحاد السوفييتي هو رأسمالية الدولة أو اشتراكية دولة (لايهم التسمية). هل يشكل هذا انتصاراً للرأسمالية الليبرالية؟ مؤقتاً، أو بشكل من الأشكال. وربما كانت الايديولوجيا الليبرالية، أي النموذج الليبرالي للايديولوجيا الحديثة هي التي تبدو الآن منتصرة مقارنة مع نموذج «الاشتراكية العلمية». ولكن باعتقادي ان الصراع السوفييتي ـ الاميركي في الحرب الباردة كان يغطي على أزمة الليبرالية والنظام البرجوازي. لأن هذه الحرب الباردة كانت تدفع إلى استقطاب العالم نحو قطبين، شرق وغرب. وكان هذا الاستقطاب يجمد دينامية الصراع داخل النظام الرأسمالي. الآن بالعكس مع زوال الحرب الباردة وزوال الصراع الاميركي. السوفييتي المستقطب لكل الصراعات الأخرى، بدأت تبدو الليبرالية على حقيقتها كنظام عالمي.

فنحن ندرك اليوم أن اختفاء الصراع الاميركي ـ السوفييتي قد فتح بشكل لم يسبق له مثيل الصراع بين «الشمال» و «الجنوب» وأبرز إلى أي حد قادت الرأسمالية الليبرالية إلى انهيار ثلاثة أرباع العالم وحشره في أزمة تخلف عميقة

يصعب الخروج منها، واعتقد أن هذه هي الأزمة العميقة لليبرالية وللرأسمالية، وان وجود الاتحاد السوفييتي لم يكن إلا وسيلة للتغطية على هذه الأزمة.

الآن. نحن أمام أزمة مفتوحة. والتحدي الهائل لليبرالية لن يكون بعد الآن في الاتحاد السوفييتي، ولم يكن أصلاً الاتحاد السوفييتي يشكل تحدياً للرأسمالية القائمة، وإنما التحدي، الحقيقي يكمن في أزمة التنمية في العالم الثالث. ولا أعتقد أن النظام الليبرالي الراهن بقيادته السياسية وبامكانياته الاقتصادية قادر على مواجهة هذه الأزمة. أزمة النمو والتنمية في الجنوب بحلول ليبرالية، وهو غير قادر من خلال الحلول الليبرالية أو الليبرالية الجديدة ان يواجه الأزمة التي يعيشها النظام العالمي ككل. وكل ما يقوم به الآن، كل ما يقترحه على ثلاثة أرباع البشرية السائرة نحو المجاعة هو تطبيق اجراءات صندوق النقد الدولي والمؤسسات المالية العالمية، التي كانت هي أصلاً في العشرين سنة الماضية، وإلى حد كبير، وراء كارثة التنمية، أو انعدام التنمية، في هذه البلدان. اذن، لا أعتقد أن هناك مجالاً كبيراً للمقارنة بين الاتحاد السوفييتي والنموذج الليبرالي المشكلة الأساسية في العالم، قبل الاتحاد السوفييتي وبعد الاتحاد السوفييتي، وخلال وجوده، هي قدرة الرأسمالية بالصورة التي تطورت فيها حتى الآن، على مواجهة المشاكل التي يخلقها توسعها وبالتالي، فهي تثير ضدها باستمرار، تخلق باستمرار، قوى أما مهمشة معادية لتوسعها، أو قوى يشكل وجودها ادانة مطلقة للنظرية الليبرالية والنظرات الليبرالية المتطرفة.

اذن اعتقد أن العالم أمام وضع جديد يحتاج إلى اعادة التفكير في أسس النظام الاقتصادي العالمي. اليوم لس مطروحاً الحديث عن نموذج سوفييتي، ونموذج قطاع دولة.. الخ اليوم مطروح كيف يمكن ايجاد رؤية جديدة لاصلاح النظام الاقتصادي العالمي. ولا يمكن توفير أي حلول لمشاكل العالم الثالث بدون ايجاد حلول لاصلاح هذا النظام ككل، وهو ما تحاول بلدان «الشمال» والولايات المتحدة على رأسها، ان تطمسه، وذلك بخلق بديل

لمفهوم النظام الاقتصادي العالمي، من خلال النظام القانوني العالمي، بمعنى السيطرة على اجهزة الأمم المتحدة، نظام قانوني عالمي يسمح للدول السبع الأكثر تقدماً وتصنعاً بالسيطرة على مصائر العالم.

العالم الثالث بحاجة إلى أن يطرح أمام هذا المفهوم الحقوقي والقانوني المحض للنظام العالمي، مفهوم النظام الاقتصادي العالمي، الذي يعبر اليوم عن الأزمة العميقة للنظام القائم وللرأسمالية كما تطورت حتى الآن. هذا لايعني أننا سنضع أمام الرأسمالية نظاماً آخر. ربما لا يوجد اليوم تصور واضح للنظام الآخر لكن على كل حال مازال موضوع نقد الرأسمالية ونقد النظام الرأسمالي أمراً راهناً كما كان في القرن التاسع عشر. ولكن النقد الذي وضعه ماركس للنظام الرأسمالي كان يتفق أكثر مع تناقضات هذا النظام في القرن التاسع عشر. ولكن، اليوم، تناقضات هذا النظام تتجاوز بكثير تناقضات الرأسمالية القومية، كما وصفها ماركس، لتصب في مشكلة تناقضات النظام الرأسمالي بوصفه نظاماً عالمياً بالدرجة الأولى. وأنا اليوم انظر إلى انهيار الاتحاد السوفييتي، إلى المغامرة السوفييتية التي لم تتجاوز الـ٧٠ عاماً كما انظر على ما حصل في اطار الدولة الاسلامية عندما ظهرت الحركة القرمطية التي هي أيضاً دامت مايقارب القرن. وكلتا التجربتين كانتا تعبيراً عن أزمة عميقة للنظام الاجتماعي القائم، وتجسيداً للمرض العميق للرأسمالية. وليس هناك خيار اليوم في معاداة الرؤية الاقتصادية الراهنة، ويجب أن نعيد ترتيب المواقع الاقتصادية وتيارات التبادل الاقتصادي داخل نظام أصبح موحداً أكثر فأكثر.

* هل يمكن القول. مع بعض المدارس الفكرية، أن الاشتراكية لايمكن أن تبني إلا في بلدان بالغة التطور الرأسمالي، وأن حرق المراحل ـ كما حدث في الاتحاد السوفييتي ـ والنزعات الارادوية التي دفعت بهذا الاتجاه لا يمكن أن تغني عن ضرورة نضوج التطور الرأسمالي؟

** لا. أنا اعتقد أن كل هذا التصور القائم على تحليل الرأسمالية في اطارها القومي قد فقد مصداقيته أو مبرر وجوده. نحن الآن نحتاج إلى تحليل

للرأسمالية كنظام عالمي وليس كنظام قطري. وكل الحديث عن فكرة بناء الاشتراكية في بلدان متطورة أو غير متطورة لم يعد له معنى. بالعكس كان قد برر أو فسر انتصار الثورة الاشتراكية في بلدان متخلفة باعتباره تعبيراً عن انكسار النظام الرأسمالي في الحلقة الأضعف.

الآن، أعتقد أنه لا يمكن بناء الاشتراكية بالصورة التي فكرنا بها، لا في بلدان بالغة التطور الصناعي ولا الأقل تصنيعاً، وأن نضوج التطور الرأسمالي لا يفضي بالضرورة إلى نظام اشتراكي، كما تصورنا.

تطور الاقتصاد العالمي يسير في اتجاه ربما مخالف كلياً ولا نستطيع أن نتوقع منذ اليوم كيف سيكون عليه التطور الاقتصادي.

ولكن، بالتأكيد المهام الأساسية في الخمسين سنة القادمة هي حل مشكلة التنمية في العالم الثالث ودفع تطور القوى الانتاجية، وتأمين الحاجات الاستهلاكية للسكان كيف سيتم ذلك؟ هل سيتم ذلك من خلال استراتيجية رسملة وتثمير قائم على اعطاء الأولوية لاستثمارات الدولة والقطاع العام بدون وثوقيات ايديولوجية أو اعطاء الأولوية للقطاع الخاص؟

بتصوري. هذه لم تعد قضية ايديولوجية، ولا ينبغي أن تكون قضية ايديولوجية. هذه القضية تبحث من الناحية العملية وحسب الظروف التي يجد فيها كل بلد نفسه في اطار النظام العالمي. إذا كان من الممكن الاستفادة من القطاع الخاص في دفع عملية التنمية يجب الاستفادة منه، وإذا لم يكن لهذا القطاع أية دينامية، لابد للدولة. مهما كانت ايديولوجيتها، أن تقوم هي نفسها بالاستثمارات الرئيسية وان تدفع نحو تطوير القطاع العام. وما نشاهده في بلادنا هو أفضل مثال على ذلك.

كل التنمية الحقيقية التي تمت في بلدان الخليج الغنية تمت باستثمارات من قبل الدولة، لأن الدولة هي التي تملك السيولة المالية والرساميل الرئيسية اذن هذه لم تعد قضية نظرية تستحق النقاش. انما هي قضية عملية تتعلق بالامكانيات المتوفرة وبالقدرة على دفع العمليتين معاً. أي على تضافر جهود الدولة وجهود القطاع الخاص ومن صالح الدولة والمجتمعات في العالم الثالث

أن تشجع القطاع الخاص وأن تقدم له الشروط والامكانيات التي تسمح بدفعه إلى الامام وباعطائه دينامية جديدة. بحد ذاته، وإذا ترك القطاع الخاص وحده في معظم هذه البلدان سيكون قطاعاً طفيلياً، أي سيهتم بارباح سريعة ويهتم بنوع من النهب الداخلي اذن. حتى إذا تبنينا مفهوم القطاع الخاص يجب أن لا يجري ذلك في اطار ايديولوجيا يريد أن يدعمها اليوم صندوق النقد الدولي، أي دعه يعمل. لأن التجربة الداخلية تدل على أن البلدان التي أعطت جميع الشروط لليبرالية من أجل دفع الاستثمارات الخاصة لم تحصل على استثمارات كثيرة في العالم الثالث. ومصر مثال على ذلك والبلدان التي حصلت على بعض الاستثمارات كان ذلك لانها تجسد بالنسبة للبلدان الصناعية موقعاً استراتيجياً مهماً. أي انه كانت هناك ارادة واعية سياسية في دفع عملية التنمية فيها. وليس بسبب الدينامية الداخلية لمفهوم القطاع الخاص والاستثمار الخاص.

إذن حتى ولو تبنينا فكرة الاستثمار الخاص هذا لا يعفي من التفكير باستراتيجيات دفع القطاع الخاص إلى القيام باستثمارات منتجة. وليس الانحصار في استثمارات طفيلية واستهلاكية. كيف سيتم ذلك؟ هذا موضوع نقاشات يجب أن تتم على مستوى اقتصاديي العالم الثالث. ويجب أن يفتح مجال جديد للتفكير في مسألة التنمية يختلف عما حصل في العقود الماضية.

* وماذا عن العالم الثالث؟ وهل أصبح مهشماً. وتحول الجدار الحديدي، كما يقولون، بين الشمال والجنوب بدلاً من الشرق والغرب؟

** العالم الثالث مهمش بدون شك في بعض النواحي، أو هناك سعي لتهميش الجزء الأكبر منه. ولكن، باعتقادي. ان جوهر الاستراتيجية الراهنة للدول الصناعية الكبرى فيما يتعلق بالعالم الثالث، ليس التهميش المطلق. وإنما التقسيم والاحتواء. بمعنى كسر وحدة هذا العالم الثالث. هم يريدون بناء بعض الجزر الاساسية المصنعة. التي من خلالها يعطون شرعية للنظام القائم، ويوحون بأن التقدم بالنسبة للآخرين ممكن أيضاً وهذا هو ما يحصل

في بعض بلدان آسيا الشرقية. وهم يريدون أيضاً أن يحتفظوا بالحد الأدنى من الرفاه والتطور في البلدان التي تحتوي على موارد أولية أساسية، وأن يسيطروا عليها. وهذه أيضاً لن تهمش اطلاقاً. وإنما الذي يهمش في الحقيقة هي البلدان التي ليست لديها موارد أولية كبيرة ذات وزن بالنسبة للتطور الاقتصادي الراهن، أو تلك البلدان التي لا يمكن أن تشكل مصادر خطر وتهديد للنظام العالمي وهنا جزء كبير من افريقيا طبعاً يمكن أن يهمش بالمقارنة مع الدول الأخرى لكن ربما جنوب افريقيا في فترة قصيرة ستحاول أن تأخذ أو تحتل جزءاً من النقود في افريقيا.

ما نشاهده في الواقع اليوم هو أيضاً تفكك فكرة الجنوب المنسجم، العالم الثالث المنسجم والموحد. وتعدد استراتيجيات السيطرة والاحتواء، حسب كل منطقة وحسب المصالح المختلفة للدول الصناعية وحسب امكانيات كل منطقة.

العالم العربي على الأغلب لن يكون لديه حتى الأمل في أن يهمش. لأن تهميشه يعني اعطاءه فرصة يعيد التفكير فيها بنفسه وإنما السيطرة المطلقة هي المطلوبة أكثر من التهميش. أي السيطرة المطلقة على الأقل على المنطقة الخليجية السيطرة الاستراتيجية الاساسية ولو بالقاء بعض الاستثمارات على بلدان المغرب العربي. لأنها تشكل مواقع متقدمة لعالم «الجنوب والعالم العربي الاسلامي. جغرافياً ومن الناحية الجيوسياسية. أيضاً بالنسبة لبلدان المشرق العربي يشكل وجودها على مقربة من احتياطيات النفط الكبرى مصادر تهديد يجب مراقبتها وعدم تركها لنفسها، اذن نحن على الأقل في العالم العربي لن يكون لدينا حظ التهميش. وإنما سوف نكون تحت المراقبة المستمرة وتحت تأثير استراتيجيات واعية ومنظمة ومنهجية تهدف إلى التحكم في التطور الداخلي في كل الاقطار العربية، قطراً قطراً، وعلى مستوى المنطقة ككل والمطلوب منا في هذه الحالة أن ندرك. نحن على الأقل. كيف نستطيع أن نتجاوز أو نواجه استراتيجيات التحكم والسيطرة الخارجية وان نخلق دينامية اقليمية. أو محلية، للخروج من هذه السيطرة أو لتحديد هذه السيطرة على

الأقل وخلق هامش مبادرة لنا نستطيع من خلاله أن نتحكم في تطورنا أو يكون لدينا الحظ في المشاركة في تقرير نوع التطور العربي الذي سيحصل في بلداننا واشكال الحكم واشكال التطور الثقافي.

نـهايـة
الحرب البـاردة
.... هي الحرب

سـمير أميـن

نهاية الحرب الباردة... هي الحرب(*)

(*) أجرى هذا اللقاء آريك فوتورينو، ونشر في مجلة (لوموند) الفرنسية، في عددها المؤرخ ١٩٩٢/٥/٢٦ وقد آخذنا الترجمة عن مجلة الحرية ـ العدد ٤٥٧ .

سمير أمين الذي ولد في القاهرة عام ١٩٣١ ، قدم منذ ١٩٥٦ مساهمة كبرى في الفكر الاقتصادي الماركسي. أعماله سلطت الضوء على ما يسميه بالبعد «المستقطب» للرأسمالية، في رأيه يتحلل الاقتصاد الرأسمالي العالمي إلى قطبين، «مركز» متطور مستملك لثروات العديد من بلدان «الأطراف»، إن التخلف لا يعود في نظره، لا إلى تأخر البلدان الفقيرة، ولا إلى ثقل تراثها، وإنما إلى عمليات النقل الدائمة بين «المركز» و«الاطراف». هذه النظرية قدمت وعمقت. في عدة من مؤلفاته، خصوصاً التطور غير «المتكافىء». (دار نشر مينوى، ١٩٧٣). «الطبقة والأمة في التاريخ. والأزمة المعاصرة». (مينوى، ١٩٧٩). وبالنسبة للعالم الثالث يعتمد الخلاص في رأيه على فك

سمير أمين مفكر واقتصادي ماركسي له العديد من المؤلفات الهامة. آخر كتاب له (امبراطورية الفوضى) الذي صدر في ١٩٩١ ، وقد قام بنقله إلى العربية عن الفرنسية سناء أبو شقرا.

الارتباط، أي على التطور المتمحور ذاتياً، حيث تتحرر بلدان الأطراف من الروابط، التي تشدها إلى الشمال الرأسمالي.

كتبَ الفرد سوفي في ١٩٨٢ بخصوص هذا الاستاذ الجامعي الماركسي (والذي يقول، انه باقٍ كذلك)، والمستشار السابق لعبد الناصر في خطة ١٩٥٧ ، ثم لرؤوساء عدة دول افريقية في فترات استقلالها: «ثمة رجال واضحو الرؤية، هزتهم أمراض المجتمع، ورأينا العديد منهم في التاريخ، ولكن نادراً ما رأينا إنساناً مثيراً للأفكار مثل هذا».

آخر كتاب له، «امبراطورية الفوضى» الذي صدر في ١٩٩١ (لارمارتان)، يقدم رؤية عن نهاية العالم، تتسم بانهيار الأعمدة الثلاثة لما بعد الحرب: «الفوردية الغربية والسوفييتية، والنزعة العالمثالثية».

* بعد خمسة قرون من البعد، ما هي التحولات العميقة التي حملها اكتشاف أميركا؟

** إن ١٤ تشرين الأول (اكتوبر) ١٤٩٢ ، هو تاريخ يوافق ولادة العالم الحديث، وظهور الصيغة «للأفضل وللأسوأ». قبل ذلك الانعطاف كانت السلطة هي التي تعطي الثروة. ومع اكتشاف العالم الجديد، أصبح تراكم الثروة منبعاً للسلطة. لقد نشأت في نفس الوقت ظاهرتان كبيرتان.

الرأسمالية بصيغتها الـ «ماقبل ـ تاريخية»، أي المركانتيلية، مع الاهتمام الواضح بالعقلانية لقد وجد انقطاع ايديولوجي وثقافي، دعاه الأوروبيون بالنهضة. وكان ذلك شكلاً لنكران الفترة الاقطاعية، والترحيب بنوع من التاريخ القديم المستعاد.

بداية غزو العالم: لقد وعى الأوروبيون لأول مرة، أنهم يستطيعون ترسيخ سيطرتهم. توضيح هام: تفوقهم التكنولوجي كان نتاج ذلك الغزو، لا سبباً له. لقد توجب انتظار الثورة الصناعية، كي يمتلك الغرب تفوقاً مادياً حاسماً.

منذ خمسة قرون، كانت الظاهرة الوحيدة الملاحظة بشكل متصل هي الاستقطاب. المقصود هو الفارق الكبير بين المجتمعات التي تؤلف العالم

الحديث. إنها فروق لا مقياس بينها وبين نظيرتها التي كانت موجودة في الماضي، في القرن التاسع عشر كان يلزم حوالي الثلاثين سنة لألمانيا كي تلحق بانكلترا وفرنسا. كم سنة تلزم للبرازيل كي تلحق بالولايات المتحدة، إذا ما أخذت بالاعتبار التضييقات الخارجية. التي هي أثقل بكثير من نظيرتها قبل قرن؟

* كيف تفسر ذلك الميل لدى الرأسمالية لمفاقمة الفروقات؟

** سبب الاستقطاب هو بسيط فالرأسمالية كنظام عالمي لا تعمل على أساس سوق العمل العالمي واقعياً. رغم الهجرة، لا توجد أية مقارنة بين حجم تنقلات اليد العاملة (سوق العمل يبقى شديد التقوقع)، والحركية الكبيرة جداً للرساميل والسلع. هذا السبب يكفي لخلق الاستقطاب بهذا المعنى، المنطق الليبرالي ناقص، كان ماركس يعتقد أن الليبراليين سيسيرون حتى النهاية في تنفيذ نواياهم، فيفتحون الحدود بابعادها الثلاثة. لو فتحت الحدود للعمال فقط، لاتاح ذلك نشوب النضال الاجتماعي المتساوي بين الكائنات الانسانية، فكروا باتفاق التبادل الحر بين الولايات المتحدة والمكسيك، الرساميل والسلع يجري تداولها بشكل حر، بينما يفكر البعض في الولايات المتحدة ببناء جدار على الحدود المكسيكية ـ الاميركية لوقف تدفق الناس. .

* بصفتك ماركسياً، هل تدين الرأسمالية بشكل كامل؟

** لا كان للرأسمالية جانبان ايجابيان هامان: لقد أتاحت نمو القوى المنتجة على مستوى ضخم. (لكن أيضاً هذا مرضها، والايكولوجيون يكتشفون مجدداً الطبيعة المدمرة للنمو الاسيّ)، لقد ساهمت في علمنة المجتمعات، وفي ظهور الديمقراطية البرجوازية. هذا الجانب يحتاج إلى الشرح.

لقد بنيت الرأسمالية على الاغتراب السلعي. إنها تفترض ايديولوجية تمنح تقدم القوى المنتجة الدور الذي قام به الاله سابقاً. المجتمعات السابقة كانت

مدارة في إطار إلهي، أو ميتافيزيائي، مثل الهيلينية، أو الكونفوشية. لقد قطعت الرأسمالية علاقتها بذلك. ولم يعد كافياً بالنسبة لها أن تطبق القوانين الالهية الخالدة كي تتقدم. يجب اختراع أنماط اخرى للتنظيم. وكانت النتيجة هي الديمقراطية البرجوازية.

* هذا ليس سيئاً إذا ما قورن بالسقوط القريب العهد لـ «الديمقراطيات الشعبية» في الشرق، أو للانهيار الذاتي في الاتحاد السوفييتي السابق.

** يجب الرجوع إلى الوراء، الثورة الروسية في ١٩١٧ واجهتها مهمة تناقضية في بلد متخلف:

اللحاق (بمعنى الصناعة وتطوير القوات العسكرية).

«صنع «شيء آخر»، المجتمع الاشتراكي.

اعتباراً من ١٩٣٠ ، احتل هدف اللحاق مقدمة المسرح. والطموح لصنع «الشيء الآخر» أصبح جملة تجميلية، فارغة، وكاذبة. النظام السوفييتي لم تكن له علاقة بالاشتراكية. وما انهار في العام الماضي هو نوع من الرأسمالية. الاتحاد السوفييتي انتج برجوازيته التي طمعت مثل كل البرجوازيات إلى الاغتناء بالحياز على وسائل الانتاج.

الاشتراكية ماتت منذ عام ١٩٣٠ . . يجب التذكير بما قاله ماو في عام ١٩٦٣ لكادرات الحزب الصيني: «لقد بنيتم بورجوازية، كما في الاتحاد السوفييتي، لا تنسوا، إن البرجوازية لا تريد الاشتراكية، إنها تريد الرأسمالية». اليوم، يلاحظ المرء خوفاً شديداً في أوروبا الشرقية، وهشاشة كبيرة للديمقراطيات. النموذج لدى يلتسين، هو تشيلي بينوشيت أو كوريا الجنوبية، ويخشى أن تكون الأنظمة الحالية انتقالاً من الدكتاتوريات إلى الأوتوقراطيات الأخرى.

* رغم تلك التغيرات الفظيعة، تستمر في الاستناد إلى الماركسية. ماذا بقي ثمة من تفكير حاد يفهم به المرء تطور العالم المعاصر؟

** توجد ماركسية، أشجبها، عامية دوغمائية؟ لا يمكن أن يلخص بها المرء ذلك الفكر. والدعاية الغربية تصوغها، لأن ذلك يلائمها، ولكن فكر ماركس فتح آفاقاً لم يعد من الممكن إغلاقها من جديد. مثل ذلك نظرته للرأسمالية والتي ليست أبدية في رأيه، وإنما تحتوي على أمور خاصة بها. كتب ماركس أن تراكم رأس المال ينخر أساسي الثروة الانسانية. العمل، الذي يحوله إلى نوع من السلعة والطبيعة، التي يدمرها، لأنه يعتبرها لا تنفذ. والايكولوجيون عثروا على ماركس. من دون أن يعرفوه. لقد اكتشف ماركس ما هو أساسي في العالم الحديث الاغتراب السلعي. وتدمير الطبيعة.

* قلت إن من الأعمدة الثلاثة والتي كانت تؤلف عالم مابعد الحرب. «السوفييتية، هي التي صنعت «الجلبة الأكبرخ وهي تنهار، ولكن الرأسمالية أصيبت أيضاً بنكبات مع نهاية ما يسمى «الفوردية الغربية».

** «الفوردية، كانت تسوية اجتماعية بين رأس المال والعمل، بقيت سارية منذ الحرب العالمية الثانية، وتصنف في إطار ذي فائدة مزدوجة: ووجود نظام انتاجي قومي (كان يمكن الكلام عن صناعة فرنسية، أو انكليزية، أو المانية)، ووجود قوى يسارية كبيرة، وانهارت الفوردية مع نهاية الأنظمة الانتاجية القومية لصالح العالمية الاقتصادية، وسلاسل الانتاج الموزعة على مقياس الكرة الأرضية. وقوى اليسار انحسرت. ولا يوجد في المستقبل المرئي جنين دولة متعددة الجنسية من أجل إدارة ذلك النظام الانتاجي العالمي.

* ألا تؤلف أوروبا ماستريخت المقدمات لهذه الدولة العليا؟

** لا، لأن أوروبا تعاني من نظرة بدئية ضيقة: سوق مشتركة. كنت آمل منذ عشر سنوات ان تبادر فصائل اليسار الأوروبية إلى سياسة اجتماعية مشتركة، تدفع بالتشريعات نحو الأعلى. العكس هو ما جرى. بقيت أوروبا

مدارة بتكنوقراطية، في هذا المنحى، أنا ضد مفهوم العملة الموحدة ذاك لأن فيه قسراً مطلقاً وليس ديمقراطياً، البنك المركزي الألماني هو الذي يفعل كل شيء. التوسعية الألمانية سائرة في طريقها، وألمانيا تسخر من أوروبا. إنها تتمتع بمساحة من النمو في اتجاه الشرق، الذي تعتبره أميركاها اللاتينية. كان يجب وجود قوى سياسية منظمة على المستوى الأوروبي، ووجود ديمقراطية حقيقية، هي أوسع من برلمان ستراسبورغ.

* ألا تجني أوروبا رغم كل شيء فوائد من نهاية الحرب الباردة؟

** أقل من الولايات المتحدة، التي أعادت تفوقها العسكري، لقد أعلن علينا منذ زمن طويل أن الحرب الباردة تحمل في أحشائها أكبر الأخطار في الصراع. كان ذلك في رأيي خطراً غير حقيقي، ابتزازاً دائماً تحركه الدولتان الأعظم. الحقيقة، كانت هناك ثنائية قطبية عسكرية، لأن التسلح كان المجال الوحيد الذي أنجز فيه الاتحاد السوفييتي عملية اللحاق، الآن تجري العودة إلى وضع ١٩٤٤ عندما كانت الولايات المتحدة تحتكر السلاح الذري، في ذلك الوقت استخدمته.. واعتقد أن خطر اللجوء إلى ذلك السلاح من أجل حل جميع المسائل، الصغيرة منها والكبيرة يتعاظم بشكل هائل، ثمة تقارير داخلية من البنتاغون تؤكد النية الأميركية في استخدام القوة وفق الأهواء نتيجة لانهيار الثنائية العسكرية إن نهاية الحرب الباردة هي الحرب. ليس الأمر صدفة، ان اندلعت الحرب في الخليج. إن الولايات المتحدة ترغب بشكل واضح، في أن توفر لنفسها حرية الوصول إلى الثروات في الكرة الأرضية، ذلك هو لب المنطق الذي ستتحدث به في قمة الأرض في ريودو جانيرو ويجب أن لا ننسى التكثيف الخيالي للاتصالات. كان لدى ستالين من أجل ايصال رسالته الصفحات المشوشة وغير المقروءة في «البرافدا». أما «بوش» فقد كان لديه في العراق الـ«سي إن إن» في هذا العالم القرية أصبحت وسائل الاتصال هي الأدوات المعادية للديمقراطية، المفزعة التي تصوغ الرأي العام العالمي.

* أتستطيع أوروبا حقيقة، أن تعيش في مواجهة هذا «التفوق» الأميركي.؟

** لا أعتقد، ثمة رجل أعجب به في أوروبا رغم وهمه اليمني: الجنرال ديغول.

إنه القائد الوحيد ما بعد الحرب، الذي فهم أن بريطانيا العظمى قامت منذ ١٩٤٥ بالاختيار التاريخي، الذي ربما لا رجوع عنه، ألا وهو الانضمام بشكل غير مشروط إلى صف الولايات المتحدة. كان يتكلم عن أوروبا، تمتد من «الأطلسي إلى الأورال»، وتشمل الاتحاد السوفييتي، كي يعيد توازن العلاقات بين فرنسا وألمانيا لو رأت أوراسيا النور، لما بقي أي معنى لمشروع التفوق الأميركي. كان يقول ديغول لنفسه أن الشيوعيين ليسوا بالضرورة غير انسانيين وان روسيا القيصرية، التي لم تكن ديمقراطية، كانت حليفة لفرنسا ان «الستار الحديدي» أفاد واشنطن بشكل ممتاز. وستالين، عندما دفع بلاده في سباق اللحاق العسكري أبعد لأربعين سنة «خطر» أوراسيا (المقصود أوروبا التي تضم الاتحاد السوفييتي بمساحته الآسيوية ـ الحرية).

* العلاقات بين الشرق والغرب سيطرت في فترة مابعد الحرب. وفي مؤلفاتك حول «المركز» و«الاطراف»، شددت دوماً على البعد الشمالي ـ الجنوبي، كي تركز على إفقار الأمم الأشد بؤساً. لكأنه قدر..

** إن خبيراً من البنك الدولي كان يصرخ بالمعجزة، لو رأى في الفترة ما قبل الرأسمالية الشمال الشرقي البرازيلي، وجنوب الولايات المتحدة، والدومينيكان أو هاييتي. كانت معادلات النمو اسطورية، مبينة على المركانتيلية والعبودية. كانت تجارة البرازيل الخارجية أعلى من نظيرتها الانكليزية بثلاثة أضعاف. وهنا فولتير الملك، لأنه فضل «المارتينيك العظيمة على حقول الثلج» في كندا. تلك البلدان أو المناطق فقدت وظيفتها في الرأسمالية المعاصرة. والعالم الثالث غير الصناعي هو مكان للانتكاسات. ذلك كان هدف اطروحتي في عام

١٩٥٦ ، ومايزال ذلك صالحاً: لا توجد ظاهرة لحاق. والرأسمالية كنظام استقطاب تخلق نظيراً تافهاً بعض بلدان «الأطراف» قامت بتصنيع نفسها. لكن قراراتها تخضع للتكنولوجيات، ولأسواق الرساميل ولوسائل الاعلام في المركز، أو المراكز البعيدة.

* ولكن ألا يساهم كل ذلك في التنمية؟

** يجب الاتفاق على ما يسمى بالتنمية، التي تؤلف مفهوماً محملاً بالقيمة، تؤلف اسناداً إلى مشروع مجتمع في المستقبل التنمية لا يمكن اختصارها إلى النتيجة العفوية لصعود الرأسمالية. فالحقيقة التاريخية التي يلاحظها المرء اليوم هي توسع الرأسمالية يبقى العالم الثالث منطقة العواصف، منطقة التنمية والمبادلة غير المتكافئتين. في مؤتمر باوندونغ (اندونيسيا) عام ١٩٥٥ ، كان لدى بلدان الجنوب، هي أيضاً طموح «اللحاق» من دون التفتيش من أجل ذلك على مجتمع جديد. كان الأمر هو اللحاق ضمن العلاقة المشتركة (التبعية)، ضمن إطار العالمية الاقتصادية. لم يخطر لها أنها ستدخل بالضرورة في صراع مع بلدان الشمال، التي هي في وضع مسيطر. ومذ تم الحصول على الاستقلالات السياسية، اعتقدت تلك البلدان أن الشروط الداخلية في بلدانها تسمح بتسريع اللحاق، أخذ عهد باوندنغ شكلين، شكل اليسار المتطرف مع نزعة قومية راديكالية، ضعيفة الديمقراطية، فظة، مبنية على ملكية الدولة، كما في الجزائر أو في العراق، أو في مصر. وشكل اليمين المتطرف، الاستعماري الجديد، حيث الاقلاع الاقتصادي يمر بالانفتاح الأكبر على الرأسمالية العالمية، كما في ساحل العاج، أو كينيا. في كل الحالات، كان ثمة افلاس بالنسبة للأهداف المعلنة لكن التاريخ يستمر. الحركة اختنقت. ورغم بداية التصنيع في العالم الثالث (والتباين في داخله) ظهرت أمراض عديدة: بطء النمو، تفاقم الفروق الاجتماعية، التضخم المديني الخارج عن السيطرة، انتكاس المناطق الريفية، وأخيراً صعود الدين الخارجي. مشروع باوندنغ ـ اللحاق ضمن التبعية ـ كان غير واقعي. كان إرادة المستحيل.

والجنوب لا يستطيع أن يخرج من ذلك إلا في اطار فك الارتباط.

* عودة إلى الانغلاق على الذات؟

** ليس تماماً. بالنسبة للبلدان الفقيرة، التنمية القادرة على تلبية الحاجات المادية لكل الطبقات الاجتماعية تبدو مستحيلة في إطار الرأسمالية. وفك الارتباط ليس وصفة، وإنما هو خيار مبدئي، خيار فصل معايير عقلانية الخيارات الاقتصادية الداخلية عن نظيرتها المسيطرة على النظام العالمي. البلدان غير المنحازة اقترحت في عام ١٩٧٥ ذلك النظام الاقتصادي الدولي الجديد. كان المطروح هو إعادة النظر في قواعد العلاقات المتداخلة، وخلق مساحة من الاستقلال والذي يسمح لروح باوندونغ أن تدوم، قال الشمال: لا. دقت الساعة من أجل سياسات التكييف البنيوي لدى البنك الدولي. بعض البلدان بدأت تصنيع ذاتها، في أميركا اللاتينية، في جنوب شرقي آسيا، في الشرق الأوسط. بلدان عديدة أخرى هي في طريقها للتهميش: بعض مناطق من الهند، الكاريبي، أميركا الوسطى، كل افريقيا السوداء، مثلاً، عهد اتفاق لومي بين دول أوروبا الاثني عشرة، ودول إ.ك.هـ (افريقيا ـ الكاريبي ـ المحيط الهادي) اطال زمن عدم تصنيع القارة الافريقية بتشديد تخصصها الزراعي المنجمي. بهذه الطريقة حاربت أوروبا تصنيع افريقيا.

* الكثير من البلدان التي ذكرتها شهدت نمواً ديمغرافياً كبيراً. أليس ذلك خطراً على التنمية؟

** لا أحب كلمة خطر التي اخترعها الأوروبيون لوصف التوسع الديمغرافي في آسيا. الغرب يخاف اليوم سكان العالم الثالث. ولكن الأوروبيون انجزوا «ثورتهم الديمغرافية». بين ١٧٠٠ و ١٩٠٠ ارتفع وزنهم بين سكان العالم من ٢٠٪ إلى ٤٠٪ كانت لديهم الامكانية لـ«استعمار» قارات بأكملها، مثل اميركا أو استراليا. العالم الثالث، لا أفق أمامه ورغم الانفجار الديمغرافي،

الملاحظ منذ ٥٠٠ عام في البلدان الفقيرة لم يعودوا إلى نسبتهم في القرن الثامن عشر.

* إنك ترفض أن تعتبر من أصحاب النزعة العالمثالثية. هل إن ذلك بسبب كون هذه المدرسة الفكرية أعطت دلائل على الاختناق خلال السنوات الأخيرة؟

** المنطق العالمثالثي اختفى من المناقشات الاعلامية. ولا يعني ذلك انه مات. الغربيون هم الذين استنفذوا احاديثهم عن التنمية. أما أنا فلست عالمثالثياً، لنقل اني ذو نزعة عالمية..

البديل
لم يتضح

سـنـاء أبو شـقرا

البديل لم يتضح

أجرى هذا الحوار الزميل الصحفي الفلسطيني سليمان عبد الله.

* انهيار الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي فيه، بعد الانهيارات التي حصلت في بلدان أوروبا الشرقية الأخرى خلال العامين الماضيين. صدم العديد من حملة الأفكار الاشتراكية في منطقتنا والعالم. ماهي برأيكم الأسباب التي أدت إلى هذا الانهيار؟ وهل كان هذا الانهيار حتمياً؟

** كان حتمياً أن يجري تغيير ما في النظام السوفييتي. ولكن هل كان حتمياً أن يتخذ هذا الشكل؟ أو أن يؤدي إلى هذا الانهيار؟ لا أعتقد ذلك.

كان هناك صراع بين قوى في السلطة وفي قيادة الحزب تحولت طموحاتها وأهدافها، على قاعدة النظام الأوامري، باتجاه مصادرة قرار المجتمع وقوى أخرى ذات ميول رأسمالية أوضح دخلت، من نفس الموقع، في صراع مع القيادة على السلطة، وقوى ثالثة مازالت غير متبلورة البرامج بما يكفي من الوضوح. ولكنها تعبر عن تطلعات اشتراكية وتريد مزيداً من الديمقراطية ومزيداً من حرية البحث والتعبير ونظاماً أقل بيروقراطية ومركزية. وكما هي

الدكتور سناء أبو شقرا عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني.

العادة، غالباً في التاريخ وظفت الفئات السائدة (الأولى والثانية)، بحكم موقعها وقرارها، نشاط القوى الشعبية في صالحها وحاولت أن تهزم خصمها المباشر. والذي حصل بعد انقلاب آب ١٩٩١ ان قيادة الحزب الشيوعي ومعظم «الأجهزة» أصيبت بهزيمة وخرجت من ساحة الصراع، آخذة معها كل المترددين، بمن فيهم الأمين العام للحزب غرباتشوف الذي كان إسقاطه هدف الانقلاب.

* ماذا يعني هذا الانهيار بالنسبة للنظرية «الاشتراكية العلمية»، أي الماركسية؟ وماالذي يمكن استخلاصه بالنسبة لمستقبل هذه النظرية؟

** بالنسبة للنظرية، الانهيار هو النقطة القصوى لامتحان التجربة، لا أكثر. أما المهم فعلاً، نظرياً، فهو التجربة ذاتها، بتاريخيتها، بوصفها محكاً للنظرية، على حد تعبير ماركس. سقوط التجربة ليس دليلاً حاسماً على سقوط النظرية. إذ ليس هناك من تطبيق لأي نظرية. ولكن مراجعة النظرية ونقدها، ونقضها أحياناً، هي ضرورات توجبها مستويات تجريد وتعميم التجربة العملية والتغيرات المحيطة الأشمل. فإذا كانت النظرية لا تتمتع بقابلية المحاكاة والاستشراف ازاء الواقع المتغير، لابد أن تسقط من تلقاء ذاتها. وتاريخ الفكر مليء بالامثلة.

أما المادية التاريخية، كنظرية ـ منهج، فما زالت تحمل مفاتيح الاسئلة الرئيسية للتطور الاجتماعي. والتجديد الضروري لمفاهيمها ومقولاتها مازال ممكناً، من الناحية المنطقية والواقعية، في اطار منهجها ذاته.

لم تقل المادية ـ التاريخية، في الجوهر، سوى أن التاريخ هو حركة الانسان نحو الاجتماع الأكثر انسانية. وهذه الحركة ليست نتيجة فعل من خارج المجتمع وإنما وليدة تناقضاته واختلاف مصالح مكوناته، وتضييق هذه الرؤيا لدرجة حبسها في مقولات ثابتة مثل «المراحل الخمس للتطور» أو حتى «الصراع الطبقي» الاقتصادي أو الصرف هو خنق لها وإبطال لقابليتها.

* الغرب الليبرالي اعتبر هذه الاحداث انتصاراً للرأسمالية والليبرالية،

تعززه النجاحات الاقتصادية للبلدان الرأسمالية المتقدمة والتنامي المتواصل للقوى المنتجة فيها مستفيدة من الاكتشافات العلمية ـ التقنية. كيف يمكن تفسير استمرار تنامي القوى المنتجة في البلدان الرأسمالية المتطورة، بالرغم من التناقضات والأزمات الدورية، في وقت تعثر فيه هذا التنامي في بلدان النموذج السوفييتي، الذي كان يوصف بأنه اشتراكي، ألا يبدو ذلك مفارقة. إذا تذكرنا المقولة الماركسية الشهيرة بشأن تنامي التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في المجتمعات الطبقية؟

** ليس بالضرورة أن يكون انهيار التجربة السوفييتية تعزيزاً «لليبرالية الغربية» كنظرية اقتصادية واجتماعية. فهذه، بدورها، تعاني من بداية السقوط ما الجديد الذي سيحل محلها؟ من الصعب التكهن. قد يكون عودة إلى صيغ جديدة من الاشتراكية ـ الديمقراطية ولكن معولمة نسبياً، هذه المرة. وقد يكون شيء آخر لم نعهده. انما المهم أن البشرية تبلغ منعطفاً جديداً في تطورها، بعض سماته العولمة الاقتصادية الشاملة، أي شكل جديد من الاستقطاب الرأسمالي. هل ستزداد الفجوة بين أقطاب هذا النظام، أم ستميل إلى الضيق؟ بعض المفكرين الماركسيين البارزين حاسمون لجهة المزيد من الفجوات. آخرون أقل حسماً. التاريخ القريب سيقدم المعطيات الكفيلة بالاقناع.

* هل يمكن القول، مع بعض المدارس الفكرية، أن الاشتراكية لا يمكن أن تبنى إلا في بلدان بالغة التطور الرأسمالي، وأن حرق المراحل ـ كما حدث في الاتحاد السوفييتي ـ والنزعات الارادوية التي دفعت بهذا الاتجاه لا يمكن أن تغني عن ضرورة نضوج التطور الرأسمالي؟.

** الاشتراكية لا يمكن أن تبنى إلا في بلدان بالغة التطور اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً واخلاقياً. هذا صحيح. ولكن ليس بالضرورة أن يكون النموذج الرأسمالي هو وحده المؤدي إلى مثل هذا التطور. السؤال هو في طبيعة المرحلة الواجب دخولها، خاصة بالنسبة لبلدان كبلداننا. هل علينا أن

نستوحي نموذج الغرب وحده؟ وهل هذا ممكن أصلاً؟ تاريخنا الحديث هو تكرار فشل هذه المحاولات. ولكن هل هذا الفشل كافٍ للحكم قطعاً باستحالة الوصول؟ هنا تحديداً على الفكر أن يجتهد. أن يفهم حركة الواقع بكل تفاصيلها، أن يرى العالمي الشمولي والخصوصية المحلية في ترابطها وتنافرها وحركتها المتعددة الاشكال، لكي يصل إلى الأفق، ومن ثم البرنامج.

* وماذا عن العالم الثالث؟ وهل أصبح مهمشاً، وتحول الجدار الحديدي، كما يقولون بين الشمال والجنوب بدلاً من الشرق والغرب؟ وماذا يمكن أن يكون إسهام حركات التحرر والقوى التقدمية في «العالم الثالث» في مجال بلورة وتطوير ماركسية اليوم؟

** كان الجدار قائماً بين الشمال والجنوب قبل وأثناء الصراع بين الشرق والغرب، وسيبقى بعده. أصلاً الانقسام شرق/ غرب كان، في إحدى مسبباته، انقساماً شمال/ جنوب. الثورة الروسية هي احدى نتائج الاستقطاب الرأسمالي ذاته الذي خلق مراكز متطورة في أوروبا وأمريكا، ثم اليابان، وأطرافاً متخلفة في أصقاع العالم الأخرى.

وثورات التحرر التي عززت «الشرق» بأنظمة ودول مشابهة للنظام السوفييتي وحليفه له، من كوبا إلى فييتنام، هي أيضاً نتاج مباشر للسيطرة الاستعمارية التي انتجها توسع الرأسمالية وتلازم معها. والتخلف، بما هو ميزة أساسية للعالم «الثالث»، هو بنية من العلاقات الداخلية والخارجية نسجها التطور اللامتكافىء، حيث خضع الضعفاء لمقتضيات تطور الأقوياء. وهذه بعض السمات الرئيسية للرأسمالية القائمة بالفعل، كما يقدمها لنا التاريخ، على الأقل منذ القرن الثامن عشر. ولكن صيغة التهميش ستتغير، برأيي، لا التهميش بذاته. فالمراكز تزداد حاجة إلى أسواق خارجية قادرة على الطلب، لا على العرض وحده. وهذه خاصية تفرضها الثورة العلمية التقنية المتسارعة. كيف ستكون الصورة خلال العقود القادمة؟ هذا ما يجب برأيي

متابعته والعمل على استشراف مساره.

لاشك أن هناك مناطق تدخل السوق العالمية بمؤهلات جديدة. ولكن هناك مناطق أخرى يجري اخراجها بكل بساطة (بعض دول افريقيا وآسيا)، تترك لمصيرها من الجوع والعجز والتقهقر. وهذا يضع مهمات ملموسة على عاتق الباحثين والسياسيين ودعاة التغيير.

إن مشكلة البحث عن حلول للتخلف لا يمكن إلا أن تفرض تجاوز المحلي (القطري) والوطني حتى. فاية كانت اشكال الاستقطاب تظل المواجهة الجماعية لها أكثر حظاً في النجاح. من هنا ضرورة التكامل المنسق بين دول ومجموعات العالم الثالث، والوعي بمقتضيات هذه العملية وأهدافها. ويبدو أكثر فأكثر عجز الفئات الاجتماعية المسيطرة في هذه البلدان عن وعي هذه الضرورات أو تناقض مصالحها معها. لذلك يبدو التغيير الداخلي في القيادات المسيطرة، وكأنه الخطوة الأولى الحيوية لانتهاج مسار جديد ازاء التوسع الراهن الذي تفرضه المراكز العالمية المتطورة واحتكاراتها.

تحسين شروط التبعية

عصـــام خفـــاجي

تحسين شروط التبعية

* انهيار الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي فيه، بعد الانهيارات التي حصلت في بلدان أوروبا الشرقية الاخرى خلال العامين الماضيين صدم العديد من حملة الافكار الاشتراكية في منطقتنا والعالم ماهي برأيك الأسباب التي أدت إلى هذا الانهيار؟ وهل كان هذا الانهيار حتمياً؟

** أولاً لدي تساؤل حول فكرة حتمية. الانهيار سأنطلق من تعبير أفضله على الحتمية ويبتعد عن التعابير الاخلاقية مثل. سيء، جيد.. الخ.

نعم، اعتبر أن ما حصل هو النتيجة المنطقية والضرورية لاداء نموذج معين لوظيفته الاجتماعية التاريخية كاملة.

هذا يحتاج إلى بعض التوضيح، ماذا يعني هذا؟

المشكلة هي أننا نعيش في عصر الانهيار نفسه، وبالتالي يصعب (وهذا ما هو سائد في بلداننا وحتى في الغرب) تحليله بطريقة صحيحة،حينما تحلل ظاهرة تاريخية مضت أو أنها تمضي عليك أن تقول أنك معها أو ضدها. وأنا

الدكتور والباحث الاقتصادي العراقي عصام خفاجي، له مؤلفات ومقالات عديدة تتناول بشكل خاص سمات أنظمة بورجوازية الدولة في المنطقة العربية. ويشرف حالياً على اصدار مجلة (جدل) المتخصصة بالعلوم الاجتماعية والانسانية.

لا أرى التاريخ يسير وفق هذه المعايير. كما أفهم الان، أن القضية ليست خطأ أو انحرافاً حصل في التاريخ، والان يجب تصحيحه، كما يفهم الان الاتجاه المعادي للماركسية. ولا أرى في الوقت نفسه أن ما حصل كان انحرافاً عن نموذج كان يسير نحو الأفضل لو طبق واجد اثنان... الخ من المعايير، ولكن لهذا السبب أو ذاك، لم يجر السير على هذه المعايير، فحصل ما حصل في رأيي التاريخ لا يعطي هكذا خيارات للقوى الفاعلة فيه انطلق هنا من الماركسية كما افهمها أصلاً. ان ما حصل في الاتحاد السوفييتي هو ان نموذجاً نجح في انجاز مهمات هي ليست مهمات الثورة الاشتراكية، حسب وجهة نظري. ولكنه نجح في تأدية وظيفة اجتماعية تاريخية معينة، وقد آن الآوان لكي ينتهي هذا النموذج منذ فترة طويلة وبهذا المعنى لا يمكن الحديث عن حتمية الانهيار، كما لو أن مأساة اخلاقية قد حصلت وأرى أن الأمر يتلخص بالتالي ليست هناك نظرية واحدة في السياسة مشتقة من الماركسية أو الماركسية ـ اللينينية. ان قوة سياسية تستلم سلطة الدولة وهي تتبنى الفكرة الماركسية، وتكون محاطة بجملة ظروف تاريخية اجتماعية اقتصادية تشتق عنها سياسات اقتصادية ـ اجتماعية وسياسة معينة لتسيير الدولة. هذه السياسات مشتقة من المهمات التاريخية التي تطرحها مرحلة تاريخية معينة، من هنا نجد أن ما كان مطروحاً على الاتحاد السوفييتي وعلى بلدان أوروبا الشرقية، وحتى على البلدان التي سميت بلدان التوجه الاشتراكي وتقودها احزاب ماركسية في العالم الثالث، هو انجاز ما عجزت عنه الثورات البورجوازية الديمقراطية، إذا استخدمنا التعابير الماركسية.

بهذا المعنى أنت تتحدث عن نجاح، ولكن النتيجة كانت غير ذلك.

نعم بهذا المعنى نجح هذا النموذج في تحقيق التصنيع، التحديث، محو الأمية.. الخ، نجح في انجاز مهمات الثورة البورجوازية ولم يكن يخدع الجماهير حين كان يستخدم تعابير اشتراكية. كانت هذه هي حدود الوعي التاريخي لقادته وللجماهير في فترة من الفترات.

فكما هو معروف، لايمكن لفكرة تاريخية أن تبنى وحاملوها يعرفون انها

فكرة مزيفة. يسري هذا على الاديان وعلى الفلسفات الكبرى.

ان فكرة معينة تستهوي جمهرة كبيرة من البشر، ولكنها ليست بالضرورة هي ما يطبق من قبل جماهير البلدان نفسها، لسبب بسيط ان الظرف التاريخي لم يسمح بعد بتطبيق ذلك. ما حصل في الاتحاد السوفييتي هو ان مهمات التصنيع، مهمات التحديث، مهمات اخراج الزراعة من القيود الاقطاعية وما قبل الرأسمالية، تمدين البشر واخراجها من قيود القنانة، حصلت.

وقد نبهت في كتابات سابقة، وبودي ان انبه من جديد، إلى قضية اعتبرها قضية بالغة الخطورة، وهي ان النصف الثاني من الستينات، بتصوري، كان هو المؤشر على الأزمة في هذا النموذج، بمعنى انه أدى وظيفته التاريخية، وما عاد بامكانه أن يطور نفسه، وكان محتماً ان يتغير هذا النموذج. فقد كان واضحاً انه لم يعد لديه ما يؤديه. ستالين نفسه (لست عاشقاً لستالين بالطبع، لكن يجب أن يقال شيء في ما يتعلق بالتاريخ) هو الذي كان يدرك، بشكل ضمني، ان نموذجه استنفد دوره. وقد تبدو هذه مفارقة لمن لم يتعمق بتاريخ هذه القضية، ستالين هو الذي حرك عام ١٩٤٩ نقاشاً كبيراً حول هل يسري قانون القيمة في الاقتصاد الاشتراكي أو لا يسري؟

كان يريد القول ان الاوامر الادارية، التحديدات الكمية للخطط، لم تعد قادرة استناداً إلى التحديدات السياسية لاشاعة الحماس السياسي، كان يدرك كدكتاتور بالطبع ان النظام بهذا الشكل قد وصل إلى حدوده التاريخية. ولكنه كان يريد أن يلفق شيئاً ما، يستطيع من خلاله أن يدخل معايير عقلنته داخل عمل ذلك النظام الاقتصادي، والذي كان يسمى النظام الاشتراكي، أو الذي سمي اشتراكياً.

لم ينجح في ذلك كما نعلم، استعيدت المناقشة في عام ١٩٥٦ مع المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي، واستعيدت من جديد في عهد كوسيغن في عام ١٩٦٤، وطرحت معايير لتحديد الخطط واللامركزية.. الخ.

ما أريد قوله.. وراء هذه المناقشات، كان هناك ادراك ضمني باستنفاد

مهمات هذا النموذج، ولكن لا يوجد في التاريخ طبقة حاكمة تقول اننا وصلنا إلى نهاياتنا التاريخية. كان السعي يدور دائماً حول كيف يتم تحديث هذا النظام الذي استنفذ امكانياته.

* الغرب الليبرالي اعتبر هذه الاحداث انتصاراً للرأسمالية والليبرالية، تعززه النجاحات الاقتصادية للبلدان الرأسمالية المتقدمة والتنامي المتواصل للقوى المنتجة فيها، مستفيدة من الاكتشافات العلمية ـ التقنية، كيف يمكن تفسير استمرار تنامي القوى المنتجة في البلدان الرأسمالية المتطورة بالرغم من التناقضات والأزمات الدورية، في وقت تعثّر فيه هذا التنامي في بلدان النموذج السوفييتي، والذي كان يقال عنه انه اشتراكي؟ يبدو ذلك مفارقة إذا تذكرنا المقولة الماركسية الشهيرة بشأن تنامي التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في المجتمعات الطبقية؟

** ان ماركس كان أول من ابرز أن الرأسمالية هي أول نظام تاريخي يعتمد على اطالة يوم العمل النسبي، وليس على اطالة يوم العمل المطلق. ومن هنا تفوقها التاريخي. أي لكي تزيد الانتاج ضعفاً لست مضطراً إلى زيادة مساحة الأرض بنفس المقدار، أو زيادة عدد العمال الذين يعملون ضعفاً أو زيادة المواد الأولية. هذا يسمى كما هو معروف اطالة يوم العمل المطلق.

آليات استخلاص الفائض في النظام الرأسمالي، بكل ما تعنيه الكلمة بدقة، تعتمد بالدرجة الأولى على اطالة يوم العمل النسبي، وليس المطلق. نعم اطالة يوم العمل المطلق هي فترة تاريخية تقابل التراكم البدائي والمراحل الأولى من التراكم الرأسمالي. وهنا من المفيد أن نستعيد كلام غرباتشوف في عام ١٩٨٥ ، كان يقول انه لم يعد هناك المزيد من الأرض كي نستصلحها وزراعتها، لم يعد لدينا الكثير من المعادن غير المستخرجة.. ماذا يعني هذا؟ لا استعيد هذا القول من باب السخرية أو انه كان كاذباً أو لا. ولكن من باب النظر إلى الأمور من المنظار التاريخي.. جوهر هذا الأمر يعني أننا وصلنا إلى الحدود التاريخية لاطالة يوم العمل المطلق وهل يستطيع هذا النظام من

دون أن يلجأ إلى الأساليب الرأسمالية أن يترسمل بالكامل؟ هل يستطيع أن يزيد يوم العمل.. ان يزيد استخراج الفائض الاقتصادي عن طريق النسبي؟ يبدو لي أن تجربة السنوات السبع الأخيرة اثبتت انه لا. ويجب ان تقال هذه الكلمة.

إلى ماذا يوصلنا هذا الكلام؟

يوصلنا إلى انه علينا الاعتراف بان هذا النموذج الذي حصل في الاتحاد السوفييتي كان سابقاً على الرأسمالية، لم يكن حتى اشتراكياً، بمعنى انه متفوق. ليس هذا فحسب، بل هو نموذج لتحديث بلد متخلف، من هنا كان دوره الايجابي بمعايير معينة، ومن هنا كانت حدوده التاريخية.

أي ان وظيفته التاريخية في بلدان معينة هي نقلها من حالة التخلف، من حالة ما قبل الرأسمالية إلى حالة على اعتاب أن تترسمل. وهذا لا يعني بالضرورة أننا الآن يجب أن نبني الرأسمالية. هذا الموضوع يترك إلى جواب اخر. ولكن ما أقصده انه أدى وظيفته التاريخية وانتهى.

أما بخصوص النظام الرأسمالي: أولاً الغرب ليس ليبرالياً. هذه تهمة في الحقيقة. الليبرالية هي مدرسة. هي منظومة فكرية لا تقل شمولية عن الماركسية المتهمة دائماً بالشمولية، أقصد توتاليتارية. والليبرالية لا تقل توتاليتارية عن التدين والقومية، والماركسية. بمعنى أنها تحدد نسقاً للحياة، من موقف الفرد من الطعام والموسيقى إلى السياسة والتعليم.. الخ. وهي ليست موقفاً سياسياً فقط وما يجعل الليبرالية تبدو شفافة، هو كون العصر هو العصر الرأسمالي. وبالتالي، تبدو النسق الطبيعي للحياة الرأسمالية.

صحيح أن الرأسمالية في هذا العصر استعادت عافيتها، وما نراه هو ان الرأسمالية بدأت بتجاوز نفسها بالحقيقة. أي حين نقول مستوى تطور القوى المنتجة وصل إلى درجة يعجز التملك الفردي عن التحكم بها، هذا ليس فقط قولاً متحذلقاً ماركسياً. هذا القول استطيع أن أمثله بمجموعة من التعابير، بمعنى حين يكون مستوى الزراعة، الشكل الأمثل للزراعة، هو ان يمتلك الفلاح قطعة أرض ويزرعها، لا تستطيع أن تشرك حتى لو أردت

التشريك. لأن هذا الشكل من الملكية يتساوق مع مستوى تطور كفاءة الادارة وغيرها. . الخ. هذا الان ما يحصل في البلدان الرأسمالية. أليست الشركات عابرة القوميات، كما تسمى شكلاً من أشكال تطور القوى المنتجة لدرجة يعجز عدد من المالكين المحدودين من التحكم بها؟ بمعنى أن هناك شكل الادارة، هذا النشاط يتناقض مع مستوى التطور الذي بلغته القوى المنتجة، هذا يعني بتعبير آخر أن تجاوز هذا النظام أصبح مطروحاً على جدول أعمال التاريخ، ولكن حين أقول ذلك لا أقصد أن الثورة ستنجز غداً يجب أن يتبلور في أذهان الجميع نوع من الاجماع على سيئات هذا الشكل. هذا أولاً، وثانياً: من مرحلة الصفر إلى مرحلة بلورة البديل أنت بحاجة إلى فترة زمنية مديدة لكي يتبلور البديل، ثالثاً: وهو الأهم، بدأت أراجع نفسي في فكرة الثورة، بمعنى حدث يحصل في مرحلة تاريخية معينة ويؤدي إلى قطع بين تاريخين، أي أن أشكال تجاوز الرأسمالية لنفسها سيتخذ مظاهر أكثر تعقيداً وطولاً بكثير مما كان في النظم الاجتماعية الاقتصادية السابقة.

هل سيحدث هذا عبر ثورة سياسية أم لا؟

قد تحدث وقد لا تحدث، لا أعرف ولكن أعتقد، سواء حدثت أم لم تحدث عملية تجاوز هذه الاشكال، ستتخذ أشكالاً أكثر طولاً بكثير وأكثر تعقيداً بكثير مما كنا نتصور، وما هو الشكل الاجتماعي الذي سينشأ؟ لا أعرف أيضاً.

وما هو اسم النظام الذي سيكون؟ ما هي ملامحه؟ إذا كان ماركس الذي تتلمذنا على يديه امتنع عن التنبؤ بشكل هذا النظام، فمن باب أولى ان أمتنع أنا عن التنبؤ، ولكن هو شكل قطعاً سيكون أكثر انسانية وعدالة في التوزيع.

وهذا ليس مطروحاً لأن البشر في الغرب سيتحولون إلى قناعات نبوية زائدة. ولكن سيتوصلون إلى ذلك لأن القضية مطروحة. ما ان تتوسع أسواق العالم الثالث، لا تستطيع أن تجد حلاً لأزمة فيض الأموال وفيض الانتاج. ولا تتوسع الأسواق مالم ترفع مستوى الدخل في البلدان المستوردة. بمعنى أن الهند مثلاً لا يكفي أن يكون عدد سكانها ألف مليون، بل يجب أن يكون

لدى هؤلاء متوسط دخل يسمح لهم بشراء ما ينتجه الغرب الصناعي.

* هل يمكن القول مع بعض المدارس الفكرية، أن الاشتراكية لا يمكن أن تبني إلا في بلدان بالغة التطور الرأسمالي، وان حرق المراحل ـ كما حدث في الاتحاد السوفييتي ـ والنزعات الارادوية التي دفعت بهذا الاتجاه لا يمكن أن تغني عن ضرورة نضوج التطور الرأسمالي؟

** ما أقوله أن الاشكال القادمة نعم ستبرز في العالم الرأسمالي المتقدم. لسوء الحظ، اللينينية، بالمعنى السوفييتي، ان صح التعبير، هي التي زرعت عبارة أن ماركس كان عبقرياً.. الخ. ولكنه لم يحسن التنبؤ حين قال أن الثورة الاشتراكية ستبنى في بريطانيا أو في البلدان الأكثر تطوراً. ليس من موقع الدوغما، أقول الآن ماركس يرد السخرية منه على مطلقيها. لا لن تبنى الاشتراكية في بلدان متخلفة. نعم الصين يمكن أن تحقق تطورات هائلة إلى الامام، والاتحاد السوفييتي حقق سابقاً تطورات هائلة. ولكن ليس هذا نظاماً بديلاً أرقى من الرأسمالية.

وكل زيف فكرة التطور اللارأسمالي اثبت أنك لن تستطيع أن تنتقل من المحراث الخشبي إلى شيء يتجاوز التقنيات المستخدمة الان في الغرب، وكذلك مستوى وعي البشر المرتبط به.

فنحن حتى الان لم نتعبأ بالفكرة الفردية. الاشتراكية أو النظام الذي يتجاوز الرأسمالية هو النظام الذي يتشبع بالفردية، الذي يمر بمرحلة من الفردية وسحق الانسان باسم الفردية لكي تتجاوز البشرية بهذا الشكل، نمو شكل اجتماعي يطلق فردية الفرد من جهة ويبنى نظاماً اجتماعياً. نحن لم نعش الفردية أصلاً. نحن انطلقنا من استبداد إلى استبداد، إلى حكم حزب واحد إلى حكم عشيرة واحدة، وهكذا فكيف تتوقع لهذا النوع من مستوى وعي البشر ان يوجد نظاماً أرقى من النظام الرأسمالي المتقدم، مالم نكن حالمين بصراحة شديدة.

* وماذا عن العالم الثالث؟ هل أصبح مهمشاً، وتحول الجدار الحديدي، كما يقولون، بين الشمال، والجنوب بدلاً من الشرق والغرب؟ وماذا يمكن أن يكون اسهام حركات التحرر والقوى التقدمية في «العالم الثالث» في مجال بلورة وتطوير ماركسية اليوم؟.

** جيلنا تربى أو دخل معترك تفتح الوعي (إذا كان وعينا منفتحاً أصلاً) في منتصف الستينات. في تلك الفترة، فترة نشوء حركات اليسار الجديد في أوروبا الغربية، فترة ثورات الطلاب في فرنسا وألمانيا، فترة حرب العصابات في امريكا اللاتينية، واسطورة غيفارا، فترة نشوء المقاومة الفلسطينية، وفترة نشوء يسار أعلن نفسه بديلاً عن الحركة الشيوعية وجمودها وركودها، فترة نشوء انشقاقات في الحركة الشيوعية نفسها، فترة احداث براغ، فترة الثورة الثقافية في الصين. طبعاً هذه الاحداث، حين ننظر إليها بعد حوالي ربع قرن من التاريخ، لايمكن ان تبدو وكأنها مجرد احداث لايربطها رابط.

فهي كلها تقريباً حركات اعلنت تبنيها للماركسية، ولكنها جميعها لم ترتبط بشكل من الاشكال بالمدرسة السوفييتية. بل أكثر من هذا انها اتخذت مواقف عداء للنموذج السوفييتي، مضمرة أو صريحة، صريحة في أوروبا الغربية واحداث براغ، وبدرجات أقل صراحة في العالم الثالث.

هذا نفسه دليل على انه كان هناك احساس أن للماركسية وظيفة علمية أو نضالية، ولكن ليس هناك لدى هذا النموذج المطبق في «البلدان الاشتراكية» ما يعطينا هذا الشيء. طبعاً هذه مأساة كبرى، ولكن هي ليست مأساة بالمعنى الاخلاقي، هي لها أسبابها. ولكن لماذا هذه الحركات؟ وقلت هذا لأصدقائي الذين تربيت على أيديهم، بما في ذلك اليسار الفلسطيني، التي تربت على الجانب النقدي للماركسية السوفييتية: لماذا هذا الجانب النقدي تراجع، وتماثلنا مع الكثير من الممارسات السوفييتية؟ هذا دليل على أن هناك شيئاً في البيئة الاجتماعية للعالم الثالث لايزال لم يستنفد النموذج السوفييتي ووظيفته التاريخية فيه.

لماذا كانت بصمات النموذج البلشفي والحماس الذي اثاره فيما أصبح يعرف

بالعالم الثالث أكبر بكثير مما هو في العالم الرأسمالي؟ طبعاً أنا أتحدث عن سبعين سنة مضت، ولكن هناك مراحل كما هو معروف. ففي المرحلة الأولى كان هناك حماس هائل للثورة في أوروبا الغربية، وحتى في أميركا. ولكن هذا الحماس كان من نوع العطف أكثر منه محاولة لتمثل نموذج ونسخه، على الأقل في خطوطه العامة. في حين كان العالم الثالث، وحتى فترة قريبة، مع تفاوت بين بلد وآخر، يجد ما حصل في البلدان الاشتراكية، أو التي كانت تسمى اشتراكية، كان يجد فيها نموذجاً للتطبيق، وان لم يكن نموذجاً للتطبيق فهو نموذج على الأقل لاحراج الأنظمة التي يعاديها بطرحه بديلاً عما تفعله هذه الأنظمة.

هذا، بحد ذاته، له دلالة، اضافة إلى أن نموذج الحزب البلشفي نفسه، أقصد نموذج حزب ثورة اكتوبر، هو نموذج لعب دوراً تاريخياً في ظرف تاريخي معين هو ظرف التخلف. ولا نعرف بلداً نجح من حالة التخلف، لسوء الحظ إلا بمركزة مفرطة.

البعض يقول أن هناك انحرافاً عن الديمقراطية، بمعنى ان لينين كان يريد الديمقراطية، ولكن لم تتحقق لهذا السبب أو ذاك.. وهذا سبب المركزة المفرطة.

بصراحة، لست ميالاً إلى هذا النوع من التفسيرات. بتصوري ان هذا الحزب هو النتيجة الطبيعية لمفهوم لينين عن الحزب. ولكن لا أقول هذا من باب الادانة. انه نموذج لعب دوره التاريخي في ظرف التخلف، كما ذكرت. ولسوء الحظ أن كل الثورات، بما فيها الثورة البورجوازية في فرنسا هي ثورات تقوم على هكذا تمركز لفترة تطول أو تقصر، ثم تتفتح شروط جديدة لنشوء ما نسميه المجتمع المدني (التعددية، الديمقراطية..الخ).

ما أريد قوله ان بلدان العالم الثالث كانت تواجه ظروفاً تشبه إلى حد كبير ما كان سائداً في هذه المنطقة من العالم. أي من منظور تاريخي الشرق الأوسط أو المشرق العربي أقرب بكثير إلى مستوى تطور أوروبا الشرقية مما هو إلى أجزاء واسعة من افريقيا على سبيل المثال. ومن هنا جاذبية «النموذج

السوفييتي» لبلدان العالم الثالث. لأن النموذج السوفييتي، حسب رأيي هو نموذج لتحرر وطني أكثر مما هو نموذج بناء اجتماعي ـ اقتصادي أرقى من الرأسمالية أو متجاوز لها. بدليل انك منذ الخمسينات لم تجد غربياً يتفاخر بانتمائه، يريد أن يطبق النموذج السوفييتي، لأنه ليس هناك ما تستطيع أن تحفز به مواطناً غربياً لكي يقضي على نظامه، حتى ولو كان معارضاً لهذا النظام.

* قد يبدو هذا الكلام اساءة للاشتراكية؟.

** ظاهرياً صحيح. ولكن جوهرياً يعيد الاعتبار للاشتراكية، لأن النموذج الاشتراكي لم يطبق حتى الآن، ولا نعرف كيف سيكون تطبيقه. ولكن لن يكون نموذجاً للتصنيع والتحديث. بالعكس، هو نموذج يقوم على أساس أنه يحقق الوفر العام، يحقق مستوى معين من تطور القوى المنتجة، وبالتالي كيف سأحسن التصرف بهذه الوفرة من المواد.. من هنا، أرى ان مستوى التطور الذي حصل في بلدان العالم الثالث، يقول انه لن تستطيع أن تبني نموذجاً أرقى من الرأسمالية، على الأقل في المدى المنظور. وهذا ما دفعنا إلى أن نستلهم النموذج السوفييتي. لاحظ ان الحركة الشيوعية العربية شهدت ذروة شعبيتها في فترات محاربة النظم ما قبل الرأسمالية، في محاربة الاستعمار، إذا كان احتلالاً، في محاربة النظم العميلة للاستعمار، وبالمقابل، دخلت هذه الحركة في أزمات عميقة ما ان انتصرت ما أسميناه ثورات التحرر الوطني.

وهذا له دلالة عميقة، وهي ان البناء الشيوعي، البناء المتأثر بالمدرسة السوفييتية هو بناء مهيأ لكي يلعب دوراً في احداث مهمات ثورة بورجوازية ديمقراطية، ومتى ما بدأت هذه الثورات في المسير (طبعاً متعثرة، تابعة، لا يفوتني هذا الشيء)، ومتى مابرزت قوى اخرى تمركز المجتمع حول حزب واحد، حول عائلة واحدة، حول حاكم واحد، تلغي المجتمع المدني، إن كان له وجود أصلاً.. الخ، كانت هذه الحركة (الحركة الشيوعية العربية) تدخل

في أزمات عميقة.

في السابق كنا نفسرها تفسيرات نابعة من الاستراتيجية السياسية. وانا من هؤلاء الناس. كنا نفسرها تفسيرات مبنية على الخيارات السياسية، لأن الحزب الفلاني اختار التحالف مع هذه الأنظمة أو تلك، أو لأنه اختار التسرع في المعارضة.. الخ.

وإذا كان عمر الرأسمالية في المجتمع حتى الآن ٣٠٠ سنة، وإذا كان التاريخ حتى الآن يقول أن للرأسمالية دوراً تاريخياً تؤديه، لا علاقة له بي كمفكر لعيوب النظام الرأسمالي، فذلك لأن جمهرة من البشر مازالت ترى فيه النظام الذي يستطيع رفع وتطوير القوى المنتجة حتى الآن. طبعاً هنا يجب القول ما الحدود المرسومة لحزب أو فصيل ماركسي في هذه الحال؟ هل نسعى لعقلنة التطور الرأسمالي أو نسعى لقلب التطور الرأسمالي؟ حتى إذا كان التاريخ يقول لنا أن الرأسمالية قائمة ومستمرة، هذه مشكلة حقيقية، إذا أردنا للماركسية أن تكون نظاماً علمياً حقيقياً وليس مجرد حركة تبشيرية.

وبصراحة، لا أملك ولا أعتقد أن أحداً يملك أجوبة قاطعة. ولكن دعنا نتأمل في بعض الخيارات بعد انهيار العالم الشرقي، ظهر نوع من الشعور بالرعب لدى العالمثالثيين، سواء كانوا ماركسيين أو غير ماركسيين، وهو يثير الاستغراب بل السخرية. فحتى أنظمة معادية للشيوعية وللماركسية شعرت بالرعب الكبير من انهيار المعسكر الشرقي.

بالنسبة لنا، كماركسيين، مفهوم لماذا الشعور بالقلق. ولكن يجب أن نحلل هذه الظاهرة بأكثر من هذا البعد، لأن الفكرة الماركسية تعاني من أزمة. ودعنا نبدأ من الجانب الأول، جانب لماذا تشعر قوى ليست ماركسية بالرعب من هذا الانهيار، وخصوصاً في المنطقة العربية؟

المنطقة العربية أكثر البلدان التي استفادت من صراعات الكتل الدولية، لكي تحصل على هامش حركة لها هنا وهناك. طبعاً هذا ليس سيئاً من وجهة نظر الخيارات التاريخية التي تتاح عادة لقوى، ولقوى غير فاعلة. ولكن المشكلة في المبالغة في الاعتماد على ذلك، وهذا ما حصل بالنسبة للعالم العربي

منذ أكثر من مئتي سنة. نحن بالغنا لدرجة انعدام فاعليتنا التاريخية كعرب وأصبحنا مجرد موضوعات سلبية للكتل الدولية.

المدرسة القومية العربية، أقول هذا وبمسؤولية وليس من باب السجال السياسي مع المدرسة القومية العربية التي كابرت كثيراً وتبجحت كثيراً بالدور التاريخي للأمة، هي أكثر من لعب دوراً سلبياً في تحويل العالم العربي والسياسة العربية وخيارات التطور العربي إلى مجرد لعبة سلمية تابعة لما يحصل في العالم بين الكتل.

فالوقوف إلى جانب الاتحاد السوفييتي لم يكن خياراً عقائدياً أو خياراً لنموذج، هو جزء من هذه اللعبة التاريخية التي. تهدد الآن العالم العربي بجعله مكشوفاً أمام هذه الكتل. هذا يفسر أحد أسباب الرعب والنظرة السوداوية للمستقبل والتي تنطلق من أن المستقبل هو تكرار للتاريخ أو هو صورة اخرى للتاريخ. أنا لست ميالاً بالضرورة إلى تبني هذا الاستنتاج. بتصوري نحن اندمجنا في العالم الرأسمالي منذ عقود. برغم كل الادعاءات التي كانت تتحدث عن الاستقلالية.. الخ. بالمعنى الرقمي والاحصائي ليس هناك منطقة في العالم الثالث أكثر من المنطقة العربية اندماجاً في العالم الرأسمالي. لا جنوب شرق آسيا ولا امريكا اللاتينية. وهذا ليس حكماً أخلاقياً، ولكنه حكم مبني على أننا لا نملك إلا المواد الأولية لنصدرها ولا نملك من المواد الأولية الكثير، وإنما نملك مادة أولية أساسية معروفة، هي النفط، نصدرها ونملك خيارات قليلة جداً لمنافذ التعامل التجاري مع العالم، كل نقطة القوة الوحيدة التي نمتلكها هي أن المادة الأولية الخام التي نصدرها هي مادة مطلوبة أكثر من المواد الأخرى. هذه نقطة القوة الوحيدة، ان سميناها نقطة القوة. وبهذا المعنى أقول أن العالم العربي هو الأكثر اندماجاً وبأشد درجات الاندماج والتبعية.

وحين اتحدث الآن عن كيف نحسن شروط تبعيتنا لا أكون أدعوا إلى التبعية، لأن الظروف التاريخية القائمة الآن، بكل تواضع، لا تسمح بفك الارتباط مع العالم الرأسمالي. وأنا لا أريد أن أتحدث وكأنني أنا الذي أرسم

المستقبل. ان التاريخ لا يستأذن أي باحث، ولكن دوري هو تحليل الواقع الذي آراه. ومن هنا أنا أرى أن العالم الثالث أمام خيارات مفتوحة، وليس أمام خيار واحد اسمه التهميش كما يشاع الآن.

انطلق من الواقع التاريخي التالي: عقب الحرب العالمية الأولى كان معروفاً ان قسمة العمل الدولي تريدنا بلداناً زراعية وتريد العالم المتقدم عالماً صناعياً. وبعد الحرب العالمية الثانية وتطور القوى وتطور الأزمة في داخل النظام العالمي، تحقق نوع من التحول، نصنع وسائل الاستهلاك في العالم الثالث، وتصنع وسائل الانتاج في البلدان الرأسمالية المتقدمة. وفي الستينات، حصل انتقال آخر، هو انه بدأت بعض بلدان العالم الثالث تصنع وسائل الانتاج على أن تحتكر البلدان المتقدمة حلقات التكنولوجيا الأكثر تطوراً. دائماً، كما هو ملاحظ، يتم نقل الصناعة إلى البلدان التي تمتلك قوة عمل رخيصة.

* ولكن هذا شكل جديد من أشكال التبعية؟.

** نعم، إنه شكل جديد، ولكن علينا أن نقر على الدوام أن هناك دائماً جيلاً من التطور العلمي يسبقنا به العالم المتقدم. هذا قدر؟ لا، هذا ليس قدراً، ولكن لكي تردم هذا القدر عليك أن تنطلق ليس من مصدر للمواد الأولية إلى ان تصنع الحلقات المتقدمة في التكنولوجيا. عليك أن تستوعب جزءاً من هذا التطور لكي تمتلك فيما بعد معرفة كيف تصنع الأشياء، وهذا ما فعلته الصين.

في البداية، نحن مازلنا في أدنى درجات التبعية بسبب سياسات اقتصادية مجرمة، ولا أقول فقط خاطئة. نحن لم نحسن أن نتعرف على اسواقنا، لم نحسن وضع برامج لتكامل اقتصادي.. الخ.

إذا نظرنا الآن إلى وضعنا من منظار دولي شامل، سنرى أن هناك حقائق موضوعية تفرض نفسها على العالم الرأسمالي فهذا العالم الرأسمالي لا يستطيع المضي في العسكرة. وحتى تصدير السلاح الذي يجري الآن إلى العالم الثالث

لن يعوض اطلاقا عن عقود لبرامج من نوع «حرب النجوم» بمئات مليارات الدولارات. هذه العقود، قد تساعد على ابقاء بعض الاحتكارات الصناعية العسكرية تلبي طلبيات بهذا القدر أو ذاك حتى خلق الحروب الاقليمية واختراع بعبع هنا أو هناك. لن يستطيع أي رئيس اميركي أن يقنع الرأي العام الاميركي ببرامج حرب نجوم، حتى لو اخترع «ايران» مارقة هنا أو «باكستان» مارقة هناك. لأنها في النهاية ليست الاتحاد السوفييتي. سيقال له أن عدداً محدوداً من الطائرات العسكرية كافية.

* إذا كان الأمر هكذا، إذن ماهي النتيجة الاقتصادية لذلك؟.

** النتيجة أن هناك فيضاً من رؤوس الأموال ستتوجه إلى العالم الثالث خارج المركز الرأسمالي لكي تجد مجالات تصريف، ليس حباً بهذه البلدان، ولكن لكي تمنع ميل معدل الربح إلى الانخفاض، كما نعرف كماركسيين، من أن يتحقق داخل المركز الرأسمالي.

نعم، هناك الآن أزمة سيولة دولية، فاقمها خروج المعسكر الشرقي وحاجته الهائلة إلى الأموال.

هناك الآن اهمال ظرفي، كما أعتقد، للعالم الثالث، لأن بلداً مثل المانيا يفضل أن يلحق به تشيكوسلوفاكيا ذات المستوى العلمي المتطور وذات قوة العمل الأكثر تأهيلاً، ذات البنى الارتكازية الأكثر تطوراً، من المنطقة العربية. ما أراه، وهذا ليس حكماً قاطعاً، انما هو أحد خيارات العالم الثالث، وهو أن المانيا انكفأت ظاهرياً لكي تحيل المنطقة المحيطة بها إلى أشباه مركز، إذا استعملنا هذا التعبير. وأوروبا الشرقية(سابقاً)ذات التراث الألماني ستنكب على تصنيعها وتحويلها إلى كوريات جنوبية وتايوانات جديدة.

فرنسا أيضاً ستبحث عن أقاليم لها في العالم الثالث، واليابان هي الاخرى تعلق آمالاً كبيرة على أن يكون العراق وايران في المستقبل قاعدتيها الكبيرتين للتصنيع، بالمعنى الكوري الجنوبي، ان أمكن ذلك.

هل نقول بعد هذا أن المستقبل وردي؟

لا، ولكن أقول هذا، ليس في مجال خيار النظم الاجتماعية الاقتصادية. هنا مجال الخيارات والسياسات الاقتصادية مفتوحة، يمكن لسياسات اقتصادية، ولا أقصد بالسياسات الاقتصادية الأرقام التقنية، وإنما الخيارات بالمعنى الواسع، ان تحقق قدراً واسعاً من الاستفادة من هذا الوضع المتخلخل في الوضع الدولي الآن، لكي نحسن أوضاعنا.

هل من الممكن أن نتهمش أكثر؟

يمكن، ولكن ما يمكن الجزم به حقاً هو أن البلدان الأشد فقراً في العالم الثالث تجد أفقاً مسدوداً لها، على الأقل من الآن إلى الأمد المنظور، وأقصد بهذا مناطق افريقيا، وليس أميركا اللاتينية وليس جنوب آسيا والهند والباكستان على سبيل المثال. هذه البلدان يمكن أن تستفيد مما يجري. والواقع أن تفكك الاتحاد السوفييتي ربما يخلق شيئاً من الكومنولث الاسلامي. وهذا شيء جيمس بيكر انتبه له، ولذلك زار هذه البلدان قبل غيرها.

يمكن لهذا الشيء أن يحقق نوعاً من التأثيرات الاقتصادية، دعك من الجوانب السياسية، لا أتحدث عنها الآن. ولكن هذه الجوانب إلى الآن مفتوحة. ولست أرى طريقاً احادي الجانب لمستقبل العالم الثالث، هذا ماأراه.

* ولكن لم نتحدث عن اسهام حركات التحرر والقوى التقدمية في العالم الثالث في مجال بلورة وتطوير ماركسية اليوم؟.

** أنا متفائل في المدى المتوسط. وهذا التفاؤل مرتبط بما سيحصل في العالم الرأسمالي.

تذكر أن أحداث ١٩٦٨ لعبت دوراً كبيراً في اجهاضها ليس فقط التآمر والقمع الرأسمالي، بل الصمت والتواطؤ الماركسي الرسمي، وأقصد السوفييتي.

وتعرف أيضاً، في تلك الفترة بالذات، كيف لعب المعسكر السوفييتي الذي كان له تأثير كبير على ماركسيي العالم عموماً، كيف لعب دوراً قمعياً على أي تجديد في الحركة الماركسية.

ما أراه، على عكس ما يعتقد الآخرون، ان الغرب في ذروة أزمة اجتماعية فكرية قبل أن تكون اقتصادية، أقرب ماتكون بأزمة البديل. من عاش في البلدان الغربية يدرك هذا جيداً، يدرك أن المواطن الغربي يعرف جيداً لأن هذه البلدان تزيد من استلابه.

لقد استفاد الغرب كثيراً من بقاء الاتحاد السوفييتي وقد تبدو هذه مفارقة، على الرغم من انهم كانوا يتحدثون دائماً عن العدو الذي يهددنا، في الواقع كان الغرب مستفيداً من وجود هذا المعسكر، بمعنى من المعاني. هذا المعنى الخصه بالشكل التالي: وجود نموذج يطرح نفسه أرقى، في حين أنه أسوأ ومتخلف بكثير. فكانت الدعاية الغربية تقول: خذوا هذا البديل، وبالطبع لم يكن هذا النموذج هو البديل. ثانياً كان أي حديث يساري يعادل الخيانة الوطنية، ليس من وجهة نظر السلطات الحاكمة. علينا أن نفهم الرأي العام الغربي، بدلاً من اطلاق الاتهامات من الخارج، المواطن الاميركي تربى حقاً وعن قناعة بأن الاتحاد السوفييتي عدوه القومي. أشبه هذا الوضع كما لو انك تقول لمواطن، عربي: انني أدين بأفكار اسرائيلية..

هذا يفسر لماذا كان من الصعب على الماركسية أن تزدهر، حتى الماركسية المجددة. وقد تستغرب أن الماركسية المجددة تجدها مزدهرة في الأوساط الاكاديمية الاميركية أكثر من ازدهارها في الاتحاد السوفييتي. لكنها لاتجد تأثيراً لها على مستوى الشارع، بهذا المعنى أجد أن انهيار الاتحاد السوفييتي له تأثير ايجابي على الحركة الماركسية والعمالية في الغرب، لأنه انتهى البعبع، أي انك كنت حين ترفع شعاراً ماركسياً أو يسارياً فانك تصبح عميلاً لعدونا الوطني. ومن جهة ثانية، لم يعد مطروحاً هذا النموذج كنموذج تستبدل به النظم الرأسمالية القائمة.

ولكن حتى يتبلور النموذج القادم ستحتاج إلى عقود من السنين. وبهذا

المعنى أنا متفائل من انه سينضج نموذج معين..

* هل ستلعب الماركسية الدور القائد فيه؟.

** هـذا سيعتمد عـلى عوامـل متعـددة. ولكنني واثق من أنـه انفجـار ثـوري سيحصل في المدى المتوسط، ربع قرن، أو شيء من هذا القبيل. ولكن علينا الاقرار بحقيقة قد تبدو متشائمة في ما يتعلق بنا كحركة تحرر أو عالم ثالث. هذه الحقيقة هي التي شهر بها ماركس بعد ثورات ١٨٤٨ ، حين قال أن أفق الثورات مسدود في العالم، وعلينا أن ننصرف إلى العمل النظري، ونعرف كيف انصرف إلى انتاج «رأس المال» وأعماله النظرية الكبرى. بخصوص العالم الثالث، الآن لم يعد هناك دور لمفكر فرد واحد. هناك عدد هام من المفكرين الماركسيين في الغرب والشرق يلعبون هـذا الدور، ولكن بشرط أن يرفع القادة السياسيون هذا الارهاب: بمعنى إذا لم تساهم في الفعل السياسي اليومي فانت متهم في نضاليتك.. الخ.

أنا أعتقد بأن الماركسية ستواجه انحساراً كحركة جماهيرية، هذا لا يقلل قناعتي بالماركسية، ولا بقناعتي بأن الماركسية ستلعب دوراً تنويرياً. وأعتقد أن الدور المقبل للماركسية هو دور حركات تنويرية على مستوى المواطن أكثر مما هي على مستوى التأثير على الدولة، بمعنى كيف ننتزع الدولة.

هذا النشاط أكثر بطئاً، ولكنه في المدى المتوسط أو البعيد أكثر ضماناً وفاعلية. فحين كانت الماركسية «شبح الشيوعية الذي يجول في أوروبا» على حد تعبير «البيان الشيوعي»، لم تكن هناك دولة اشتراكية أو دولة تتبنى شعار الطبقة العاملة، ولكنها كانت تخيف. لماذا ننفعل الآن، لأنه لم يعد لدينا دول؟ علماً بأنه بامكاني وبامكان الكثيرين من الوطنيين أن يستذكروا تواريخ مريرة، لا أقول هذا لأن الاتحاد السوفييتي انهار، كيف نستذكر طعن الاتحاد السوفييتي الكثير من نضالات العالم الثالث حينما اقتضت المصالح الاستراتيجية للدولة السوفييتي هنا أو هناك. طبعاً لا أنسى الدعم الكبير الذي

قدمه هذا المعسكر، ولكن على التاريخ أن يقول كلمته السلبية والايجابية.

بهذا المعنى أرى في الواقع، ان أمامنا مهمة فكرية تنويرية ثقافية ليست فقط كرد اعتبار للماركسية والوقوف في مواجهة التيارات الأخرى، لأن هذه المرحلة هي مرحلة انهيار مدارس فكرية وليس المدرسة الماركسية كما يتصور البعض، فالمدرسة الدينية لم تحكم، ولكن تناقضاتها تفجرت منذ الآن، والمدرسة التي حكمت طوال العقود الأربعة الأخيرة، وهي المدرسة القومية العربية بتلاوينها المتعددة يجب أن تمتلك الجرأة وأن تقول كلمتها. . . الخ. فهي تعيش الأزمة منذ زمن بعيد.

الماركسية تبدو الآن في موضع الاتهام لأنها كانت تملك تأثيراً عالمياً كبيراً، أكبر من تأثير المدارس الأخرى.

على العموم، نحن مقبلون على مرحلة فتور ولا تسيس، أي ان الجماهير لن تترك الماركسية لكي تعتنق فكرة اخرى، بل ستترك السياسة باتجاه الهموم الخاصة. وهنا الدور مؤهل لحكم تكنوقراط عديم اللون يجد قاعدته الاجتماعية في اللامبالاة بالسياسة، في عدم الثقة بالسياسة، وبالسياسيين عموماً.

العودة
إلى ماركس

فـــواز طرابلســـــي

العودة إلى ماركس

* انهيار الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي فيه بعد الانهيارات التي حصلت في بلدان أوروبا الشرقية الأخرى خلال العامين الماضيين. صدم العديد من حملة الأفكار الاشتراكية في منطقتنا والعالم. ماهي برأيك الأسباب التي أدت إلى هذا الانهيار؟ وهل كان هذا الانهيار حتمياً؟.

** أريد أن أسجل استغرابي للاهتمام الزائد عن اللزوم في أزمة الاتحاد السوفييتي، بالقياس إلى الاهتمام بقضايانا العربية. لا أعتبر نفسي خبيراً في الاتحاد السوفييتي، لم أزر الاتحاد السوفييتي في حياتي.

عندما كنت في قيادة اليسار في لبنان، لم يكن معترفاً بالتنظيم الذي انتمي إليه، منظمة العمل الشيوعي. لم أزر الاتحاد السوفييتي في وفد، ولا زرته كسائح. وبالتالي ان زرت روسيا الآن، أو في وقت لاحق، فلن أكون قد زرت الاتحاد السوفييتي، لأنه انتهى.

المفكر والمناضل، التقدمي، الديمقراطي، اللبناني المعروف، له العديد من المؤلفات الفكرية والأدبية والترجمات المهمة منها (تطور الرأسمالية في روسيا).

فواز طرابلسي يقيم الآن في باريس، ويعمل على اصدار كتاب، (عمل في التاريخ)، وهو محاولة متابعة العلاقة بين السياسة والاقتصاد والطوائف والطبقات في تاريخ لبنان الحديث.

هذا لا يمنع من تسجيل بعض الانطباعات والتأملات في ما جرى. أولها، السؤال: هل تفجر أو تقوض الاتحاد السوفييتي داخلياً؟ هل أسقط من الخارج؟ هل ما جرى كان حتمياً أو غير حتمي؟ هذه الأسئلة هي التي تشغل بال الجميع.

ان يقال سقط الاتحاد السوفييتي نتيجة مؤامرة اميركية، هذا القول لا يعني شيئاً. لأن الاتحاد السوفييتي هو المعسكر المناهض للولايات المتحدة، والصراع بينهما كان سجالاً، والبحث كان يدور حول من يتغلب على الآخر. بهذا المعنى كانت الولايات المتحدة الاميركية، تمارس عملها.

وقد لا يفسر شيئاً القول ان الاتحاد السوفييتي أسقط بسبب التآمر الداخلي. الذي يقربنا من هذا البحث هو أخذ العلم، منذ البداية، وقبل الحديث عن سقوط الاتحاد السوفييتي.

أولاً: نحن أمام انتهاء موجة من النضال المعادي للامبريالية، افتتحتها ثورة اكتوبر ١٩١٧ كامتداد لثورات وانتفاضات عمالية منذ منتصف القرن التاسع عشر في أوروبا. ان انتصار الثورة الروسية خلق معسكراً مغلقاً على العالم الرأسمالي، ومناهضاً له، ويزعم نفسه كبديل له.

لنسجل، هنا، ان الذي انتهى، الآن هو حصيلة هذه المواجهة من النضالات، مثل أي نضال. وهذا يختتم مرحلة تاريخية من محاولة بناء نظام بديل للرأسمالية. وهذا لا يختتم بأي معنى من المعاني لا تناقضات الرأسمالية، ولا النضال ضدها، ولكن يختتم محاولة بناء نظام بديل لها هو هذا النظام من النمط السوفييتي ـ اللينيني ـ الستاليني.

من حيث العوامل الخارجية، هذا النموذج انهزم تحت وطأة السلعة الرأسمالية وتحت وطأة المنافسة الاقتصادية مع الغرب.

أما فيما يتعلق بالممارسة، أعتقد أن ما كان يبنى في الاتحاد السوفييتي، لا علاقة له بالاشتراكية. ما كان يبنى هو لون من رأسمالية الدولة، شكلها المضخم الاستبدادي، هو الستالينية.

وهذا الشكل اكتسب قوته بعد الحرب العالمية الثانية، بسبب الاستدعاء

الوطني لما يسمى الشعب السوفييتي في المعركة ضد النازية. وهو قائم على الاستغلال الفظ للفلاحين والعمال، وتوظيف فائض الانتاج لبناء القدرة العسكرية.

فالمفارقة الأولى في هذا النظام هي التي ينطبق عليها تعبير ماركس الشهير حول أولوية الاقتصاد. فلقد عجز هذا النظام أن يردف قوته العسكرية بقوة اقتصادية، تصمد أمام مبدأ التنافس مع المعسكر الرأسمالي، وهو مبدأ ارادة النظام السوفييتي قائماً على تنافس الانتاج السلعي، لا على تنافس بين نمطين من الحياة.

* هل هذا يعيدنا إلى ماركس؟

** الذي انتصر في الاتحاد السوفييتي هو ماركس ضد لينين انتصر أمام تحدي «حرب النجوم». فقد تبين ان الاتحاد السوفييتي لا يملك القدرة الاقتصادية الكافية للاستمرار في المنافسة العسكرية، على المستوى التكنولوجي، وعلى مستوى التوظيف المالي المخيف للحاق بالولايات المتحدة الاميركية.

هذا هو السبب الموضوعي الأول.

أما فيما يخص الأسباب الداخلية، فمنذ انتهاء الستالينية، وهذا النظام يواجه تحديات إعادة النظر الجذرية فيه. ولم تنجح المحاولة الاصلاحية لخروتشوف، مهما كان رأينا فيها، واستنقع هذا النظام خلال ربع قرن في تجميد التناقضات.

واعتقد أننا تغاضينا جميعاً على مستوى الاهمال الفظيع لمستوى معيشة البشر وأولويات الحياة للمواطنين في هذا النموذج، وهي أولويات الطعام والسكن وتوفر الموارد الغذائية. فيما يخص المسألة القومية، أريد أن أسجل مفاجأتي الاستثنائية، وخاصة أنني لم أكن من الذين فوجئوا بعدم وجود اشتراكية. كنت من الذين اعتقدوا أن الاتحاد السوفييتي قد حل عدداً من القضايا الديمقراطية الأولى، ومنها المسألة القومية.

ولكن هذا اللون من العلاقة الاستبدادية بين السلطة والمجتمع، يبدو انه

يقمع ويجمد ويجلّد القضايا، التي ستعود إلى الظهور على السطح مثل ما كانت عليه قبل الثورة. لعل في ذلك بعض التبسيط في ظل هذه الأزمة المريرة للنظام السوفييتي. تولدت ردود فعل قومية همها الأول أن تسيطر كل قومية على مواردها الطبيعية وثروتها بصفتها الشكل الوحيد الظاهر لديها لتحسين أوضاعها.

المسألة القومية ليست معزولة عن المسألة الاجتماعية وليست منقوصة، وليست انتكاساً عنها. هي محاولة بدائية لتقاسم الموارد على أمل امكانية توزيعها. من هنا تبقى المفاجأة الضخمة في مدى العجز المتمادي في معالجة القضايا القومية، ومدى القمع الذي جرى التعاطي فيه مع كل قضايا المجتمع، بما في ذلك قضايا القوميات.

في ما يتعلق بالجانب النظري: أعتقد بأن من يهتم بدراسة تاريخ تطور هذا النظام، ربما يبدأ من السؤال الكبير، وهو سؤال يخصنا في العالم الثالث: هل يمكن بناء الاشتراكية على قاعدة من التخلف الاقتصادي؟

الجواب اللينيني هو نعم، كل الارادوية التي مثلتها اللينينية كانت قائمة على هذه الفكرة إذا أردت الرجوع إلى البداية في «تطور الرأسمالية في روسيا»، وهو الكتاب الذي لم يترجمه السوفييت إلى العربية، ترى أن لينين يخلط بين العلاقات الرأسمالية وبين نمط الانتاج الرأسمالي. حيث كان يوجد نمط انتاج رأسمالي صناعي صغير محدود. وقد استنتج لينين من ذلك أولوية المهمة الاشتراكية. وعند التدقيق في ذلك، تجد بأن الاضطراب والاختلاط في حياة لينين كان واضحاً. أعلن في ١٩١٧ ، بأننا سنباشر في بناء الاشتراكية. وعند وفاته، كان توصيفه للدولة السوفييتية بأنها رأسمالية دولة متخلفة ذات تشوه بيروقراطي، ولكن بقيادة الطبقة العاملة. أعتقد أن كل اللينينية، بما هي نزعة ارادوية قائمة على هذه الفكرة، تركز على أن البناء الفوقي المتقدم يجر البناء التحتي المتخلف وراءه.

* هناك تجارب تاريخية أخرى، حاول فيها البناء الفوقي أو السياسة قيادة البناء التحتي (الاقتصاد)... مثلاً فييتنام. كوبا.. الخ؟.

** هذه الأولوية المطلقة للسياسة ينجم عنها نوعان من العمى: العمى الأول هو التصور بأن الأفكار تغيّر ولا تتغير، أي أن الفكرة المتقدمة تغيّر المجتمع، وهذا جذر أساسي من جذور الاستبداد، قوامه فكرة الطليعة ونظرتها إلى المجتمع بصفته مادة أو عجينة للعمل بها وقولبتها. من هنا فكرة ماوتسي تونغ بأن الشعب صفحة بيضاء نكتب عليه ما نريد. ومن هنا الفكرة المعدلة عند لينين بأن الطليعة تنقل الوعي من الخارج إلى طبقة عاملة هي بلا وعي غير وعيها الاقتصادي. في حين أن هذا غير صحيح. فالعمى الأول هو وهم عدم تأثر الأفكار بمستوى التطور الاقتصادي للمجتمع.

العمى الثاني، وهي فكرة لينين الأخرى التي تقول بأن روسيا متقدمة سياسياً ومتخلفة اقتصادياً. أعتقد بأن العلاقة بين المستويين علاقة تأثير وتأثر متبادلة. أولوية السياسة أو الفكر (ما يسمى ايديولوجيا) تحذف الجدل في العلاقة. من هنا، ان ثورة اكتوبر سمحت لنفسها بأن تكون نموذجاً استثنائياً من الاستبداد باسم الشرعية الثورية، تخول لنفسها عدم الانصات لأي شيء صادر عن المجتمع، مكتفية بالعصمة الفكرية وادعاء التمثيل الذاتي، بلا تجديد لهذا التمثيل، حتى بلا أي وضع لهذا التمثيل موضع المحك أمام آراء الناس وتطلعاتها ومشاكلها. برأيي، هذا النموذج انتهى بشكله المضخم البشع البيروقراطي الاستبدادي. ولقد تبين في محاولة الانقلاب الأخيرة بأن عصب الدولة السوفييتية هوا لجيش والمخابرات.

من هنا، استطيع القول بأن الصيغة السوفييتية من الماركسية هي ايديولوجيا دولة، وهي دين دولة. وقد غلبت الوجه الديني على الوجه العقلاني والجدلي من الماركسية. بمعنى الايمان بالجبرية والحتمية وبالانتقال الآلي من أنماط الانتاج، الواحد تلو الآخر، وبمعنى هذا الاطمئنان بأن هناك تاريخاً يتقدم صعوداً إلى الأمام، ووجهه الآخر المناقض له هو الارادوية الكاملة. بمعنى أنك تستطيع أن تصنع أي شيء بمجرد أنك قررت ذلك هذا هو الوجه الديني من الماركسية بكل طقوسه. الذي يرى أن هناك نصوصاً مقدسة، ويوجد من يؤول هذه النصوص، والانحراف عن جادة الصواب

يشغل الماركسيين. طبعاً، يصعب التعميم، ولا أريد التعميم. وإنما القاسم المشترك بين هذه التجارب هو، أولاً، الصعوبات الكبيرة، حتى لا أقول العجز عن الانتقال من التعميم والتبشير، وأيضاً الترجمة. على العموم، الترجمة ضرورية. الترجمة هي ان تضع بتصرف القارىء نتاجاً بلغة ثانية. أما نقل المفاهيم إلى لغة أخرى لا ينقلها بالضرورة إلى الواقع طبعاً، لست أريد الايحاء بأنه لم تكن لليسار رؤية للواقع. المفارقة، برأيي، كانت بين ادعاء اليسار لما يمثله وبين تمثيله الحقيقي، أقصد الادعاء التمثيلي للطبقة العاملة، وللاشتراكية. كان هذا فخاً سوسيولوجياً منع اليسار في أن يفكر في ما يمثله حقيقة. اليسار يمثل، وما يزال في مجال التمثيل، مصالح معادية للمجتمع القديم، رؤية حداثية غير رأسمالية، تطلع إلى الديمقراطية ولكن لا يعبر عن نفسه برنامجياً على هذا النحو، لأنه محكوم بفكرة الطليعة، ولأنه، بعد انتقال يمين حركة التحرر العربي إلى السلطة، صار نموذج اليسار تجاه السلطة، أي ما بناه يمين حركة التحرر العربي، هو النموذج، السوفييتي، وهذا خلق الأزمة الكبرى في اليسار، ولأنه وجد أن سواه يطبق النموذج، أصبح ادعاؤه بأنه هو صاحب النسخة الأصلية والحصيلة الابتعاد المتزايد عن المصالح الجذرية للناس، وعن استكشاف التناقضات الجديدة في ربع القرن الأخير للانظمة العربية.

أكرر، الوعي المطابق مقولة وهمية، لأنها تفترض المجتمع في حالة سكون، في حين أن هذه العلاقة التي تدخل التاريخ والاقتصاد والاجتماع، وتعين المرحلة التاريخية، وتعين الكتل ذات التطلعات والمصالح فيما يتعلق بهذه المرحلة التاريخية هي مفارقة بين الواقع والوعي لكنها مفارقة بمعنى ان هناك مغالبة بين الواقع والوعي، وان الواقع «المتخلف» سيفسد الوعي، وان الموضوع نسبي! أنت تعتقد بأنك بنيت الحزب الحديث، فتجد أن آلياته الداخلية فيها العشائر والقبائلية والتركيبات الاثنية. وهذا ليس عيباً، فقط نظرة علمانية مجردة ترى فيها العيب. ولكن عدم أخذه في عين الاعتبار هو المشكلة واغفاله باسم اننا حزب الطبقة العاملة دون تعيين أو افتراض بأن

هناك جوهرا اسمه الطبقة العاملة، وهو ثوري في كل مجتمع بغض النظر عن ماهيته هنا المشكلة.

بهذا المعنى، أرى أن التركيبات الحزبية القائمة على الديمقراطية المركزية، وعلى العلاقة النخبوية مع الناس هي جزء من المشكلة الكبيرة، مشكلة الانفصال المتزايد عن تمثيل المصالح الجذرية للمجتمع، وهي الفراغ الذي يحتله الآن من يقدم خطاباً معارضاً، في حين أن القسم الكبير من اليسار هو في هذه الحالة الرمادية بين السلطة والمعارضة، وهو ليس معارضة إلا فيما ندر. كذلك يتعلق الأمر بوسائل النضال، كلها تدور حول وسيلتين اسمهما التحالفات والكفاح المسلح. كل هذا العالم الذي اسمه عالم الأجهزة هو المطلوب اعادة النظر فيه.

بهذا المعنى، لست أتوسم خيراً باستمرار تركيبات على هذا المنوال وهذا ليس مجرد توقع ولكن مشاهدة عيانية لما يجري.

ولكن السؤال يبقى هل هناك مكان وحاجة لتمثيل مصالح جذرية في المجتمع تصطدم بنمط الأنظمة الرأسمالية والاستبدادية؟

هذه الحاجة موجودة. وبالتالي تفترض خلاصاً سريعاً من اشكاليات وأسئلة حول ما جرى في الاتحاد السوفييتي، وطرح أسئلة ما يجري في الوطن العربي، وما قد جرى في الـ ٢٥ سنة الأخيرة من الحراك الاجتماعي ومن التحولات الجذرية. هذا هو البحث الجدي برأيي.

* هل هذا الخطأ أو الخلل في التمثيل ناتج عن قصور في وعي هذه القوى، أم هو ناتج عن هذا الحراك الاجتماعي والتفسخ الاجتماعي الذي أصاب بنيات المجتمع العربي؟

** ان نموذج الانتاج الرأسمالي المتقدم للتحليل الطبقي. سلفاً، لا ينطبق على بلادنا. وهو النموذج الذي يفترض بأن هناك طبقتين تصنعان التاريخ، هما قطبا نمط الانتاج ذاته: البورجوازية والطبقة العاملة.

ظهور الرأسمالية الطرفية المستتبعة قطع هذا النمط من الانتاج الثنائي وما

والحسم بالانحياز إلى المعسكر الآخر طريق التحرر الوطني قبل التحرر الاجتماعي. وبالتالي الخسران هنا كبير. بمعنى أنك أنت تخسر سنداً في معركة وطنية قبل أن تخسر نموذج بناء نظام. الشيء الآخر الذي أجده قد انتصر في الاشتراكية هو هذا اللون الديني المرجعي الذي قضى على ما عداه وسواه وحول الماركسية إلى تبشير وعقيدة يقينية جامدة. لهذا السبب، الانتاج المعرفي قليل والانتاج التبشيري كثير في الماركسية العربية، قسم كبير من الذين استوحوا الماركسية في الدراسات وفي المعارف الاجتماعية، كانوا من خارج الهياكل الرئيسية لليسار.

إن كثيراً من الفكر الماركسي «المسفيت» ـ حسب ما كان يسميه المرحوم ياسين الحافظ ـ هو فكر تبشيري، فكر يقول بالصراع الطبقي، ولكن لا يبين جوهر التناقض. فكر يقنع المؤمنين. ان القسم الكبير، وليس الأكبر، من الانتاج الفكري هو هذا اللون من تكرار مقولات تبشيرية ومن المفاهيم العامة والمجردة غير المشغولة ولا المصقولة لفهم واقع محدد.

* هل هذا يعني أن على حركة التحرر العربي أن تعيد صياغة نفسها من جديد، بعد أن كانت تتسم بالسمات الدينية والتبشيرية؟

** هناك شعرة معاوية انقطعت بين فكرة الطليعة اللينينية وبين فكرة الطليعة والنخبة في الفكر القومي والنهضوي، وهي فكرة النيابة الذاتية عن الشعب التي تعدم فكرة تمثيل المصالح، وفكرة الانتخاب. هذه الفكرة هي القاسم المشترك بين هذه الاتجاهات العقائدية الثلاثة في الوطن العربي (الماركسية ـ القومية ـ الحركة الاسلامية). بعض أطراف الحركة الاسلامية يقيس المجتمع بالقياس إلى النص، فيكفّر المجتمع. الفكر القومي يعتبر أن الشعب مصاب بمرض ثلاثي (الفقر ـ الجهل ـ المرض) وان الطليعة، التي يسميها الاستاذ ميشيل عفلق الانبياء الصغار، مكلفة برسالة تغيير هذا الشعب. واللينينية، بصيغتها العربية، هي منوع من هذه المنوعات، حيث النص هو الوعي من الخارج على شعب متخلف بالقياس إلى الوعي. لا أعتقد أن في ذلك مبالغة،

لأن نمط أنظمة الاستبداد في بلادنا تعبير دقيق عن هذا الشيء. ليست أنظمة قائمة فقط على اللاشرعية والنصب، ولكنها قائمة على علاقة معكوسة بين الحكام والمحكومين، حيث المحكومون يجب عليهم أن يشكروا الحكام لقبولهم الولاية والرعاية عليهم. هذا هو ديالكتيك الاستبداد العربي، القائم على فكرة أن الغلط في الشعب. وإذا كانت الطليعة تنوب عن الشعب. فالمكتب السياسي ولجنته المركزية ينوبان عن أعضاء تلاميذ يجب تعليمهم وتلقينهم، وتغييرهم من أجل أن ينسجموا مع الفكرة. مرة أخرى، هذا يقطع علاقة الجدل بين الفكر والواقع. وهذا يساهم في ايجاد قطيعة بين الفكر والواقع ويكرس ماهو متخلف في الواقع ولا يغيره، خاصة وإن الوعي ليس مادة لعب، وإنما هو نتاج تاريخي وتراكم، وليس فعلاً سحرياً لنص على قوم.

* لقد ترجمت «تطور الرأسمالية في روسيا»، وكنت عضواً بارزاً في احدى القوى الوطنية في لبنان هل تعتقد أنك ساهمت في نقل وطرح خطاب الواقع، أما أنكم كنتم تستندون إلى مرجعية خارجية أو نصية؟

** أعتقد أن مرحلة الترجمة والتبشير فقط هي المرحلة الطاغية. وقد ساهمت فيها كثيراً كغيري. لست أضع نفسي خارج ذلك. الذي يثير التأمل، برأيي هو انه لا توجد مطابقة بين الفكر والواقع. من هنا أنا متشكك في مقولة «الوعي المطابق». اشدد على العلاقة الجدلية بين الوعي والواقع ومأخذي الذي اكرر هو الوعي القسري الذي لا يأخذ بعين الاعتبار الواقع، أي أن هناك تفارقاً مستمراً بين الوعي والواقع. ومقولة ماركس بأن المجتمع يطرح فقط الأسئلة التي يستطع الاجابة عليها مقولة وهمية. منذ بدأت البشرية وهي تطرح على نفسها دائماً ما لا تستطيع عليه والاديان هي خير تعبير عن الطموح إلى المساواة. تحمل في ذاتها استحالتها، لأنها تحيلها إلى عالم آخر، ولكن تبقى معبرة عن هذا الطموح الانساني إلى المساواة. الحرية ليست من اختصاص الديانات. ولهذا السبب لم تكن من اختصاص الماركسية، لم تكن هاجساً

يؤدي إلى القتل.

في حين ان الوجه العقلاني للماركسية هو الوجه الذي يقول أن هناك مجالات للخيار، الخيار الذي يتحدث عنه ماركس: يمكن للرأسمالية أن تتقدم إلى الامام، ويمكن أن تنتكس إلى الوراء: الاشتراكية أو البربرية، يقابلها الجبرية، الحتمية التاريخية، الخ. الوجه العقلاني للماركسية هو فكرة التناقض التي هي مفهوم غني ونسبيّ.

أما ما يبقى من الماركسية هو اسهامها الكبير: المادية التاريخية والجدلية وهما مجموعة من المفاهيم قابلة للتطور والمراجعة، تساعد على فهم التاريخ والمجتمع، وليست وحدها المرجع الوحيد الممكن لأي فكر، وخاصة لأي فكر عربي..

* هل تعتقد بأن هناك نظريات اخرى في النقد الاجتماعي الجذري؟

** صيغة الماركسية التي يتعاطى معها اليسار العربي هي ما وصل إلينا من كراسات التبسيط السوفييتية الستالينية، وهي قائمة على التبشير أكثر مما هي قائمة على المعرفة. نحن، أصلاً بعيدون جداً عن الماركسية. نحن نقرأ «ماالعمل؟» «موضوعات نيسان»، «خطوة إلى الامام»... للينين. الخ، ولا نقرأ «تطور الرأسمالية في روسيا» ولا نقرأ ماركس... الخ فالذي طغى هو هذه الصورة التبشيرية القائمة على القبلية، وليست قائمة على البحث والمعرفة. المحك في نهاية المطاف هو ما يساعد على أغنى وأعمق إدراك. ومعرفة للمجتمع العربي وللتشكيلة الاجتماعية العربية. وهنا، لاشك لدي، بأن الماركسية هي المصدر الاساسي للمعرفة، ولكنها ليست بالضرورة المصدر الوحيد.

* الغرب الليبرالي اعتبر احداث أوروبا الشرقية انتصاراً للرأسمالية والليبرالية، تعززه النجاحات الاقتصادية للبلدان الرأسمالية المتقدمة والتنامي المتواصل للقوى المنتجة فيها، مستفيدة من الاكتشافات العلمية ـ

التكنولوجية كيف يمكن تفسير استمرار تنامي القوى المنتجة في البلدان الرأسمالية المتطورة، بالرغم من التناقضات والأزمات الدورية، في وقت تعثر فيه هذا التنامي في بلدان النموذج السوفييتي، والذي كان يقال عنه انه اشتراكي؟ يبدو ذلك مفارقة إذا تذكرنا المقولة الماركسية الشهيرة بشأن تنامي التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في المجتمعات الطبقية؟

** فيما يتعلق بالصراع بين المعسكرين، انتصار الرأسمالية على الاشتراكية، هل حصل؟ نعم، حصل لا مجال للمكابرة، وهذه خسارة تاريخية. هل هذا يعني أن نزكي الرأسمالية، لأنها انتصرت؟ الذي انهزم، أولاً، هي هذه الفكرة التبسيطية في توقع انهيار الرأسمالية، وهي فكرة تضليلية واسطورية، وهي فكرة تقول ان الرأسمالية، منذ أن ولدت، وهي متأزمة. يجب التفكير بجدوى مفهوم الأزمة. حتى أن الاشكالية كلها خطأ، تتحدث وكأن الناس تختار المبادىء حسب أهوائها. بمعنى أننا جربنا الاشتراكية ففشلت، علينا الآن أن نجرب الرأسمالية. هذا حديث أناس لا مصالح لهم. ما هو موقفي من الرأسمالية؟ أنا من الأكثرية الساحقة من شعبي العربي من ضحايا الرأسمالية. السؤال ليس المفاضلة الذهنية بين النموذجين، السؤال كيف التعبير، وكيف نحقق المصالح الحقيقية التي نمثل؟

* هل ما حصل في الاتحاد السوفييتي ترك أو سيترك آثاراً على مصداقية الفكر الماركسي في العالم الثالث، وفي الوطن العربي خصوصاً.

** لايجوز الاستهانة بحجم الأثر على اليسار في العالم الثالث وفي بلادنا. والسبب الرئيسي في ذلك أن قسماً من قوة اليسار أو نفوذه ناتج عن دور أساسي لعبه الاتحاد السوفييتي في دعم حركات التحرر في القارات الثلاث. وبالتالي فان جانباً من الانتساب إلى الماركسية جاء من خلال موقع وطني ديمقراطي جذري، حسم في الانتساب إلى معسكر ضد معسكر آخر. وهذا بعيد بعض الشيء عن الاشتراكية بذاتها. أي أن قسماً كبيراً من الاشتراكيين في بلادنا هم وطنيون جذريون وجدوا في الانفكاك عن المعسكر الرأسمالي

يستتبعه من فكر وتحليل. فالصراع الطبقي معقد، والطبقات لا تختزل إلى طبقتين أساسيتين كل ما بينهما تافه أو سائر إلى زوال. هذا الرأي هو درجة الصفر من التفكير، وهو تكرار لاحدى المقولات البائسة لماركس، وهي فكرة الاستقطاب وان المجتمع سينشق بين أكثرية عمالية منتجة وأقلية مالكة للانتاج وإلى انهيار ما بينهما.

أجازف في القول، بدون تردد، ان ما صنع التاريخ خلال الثلاثين سنة الماضية هي هذه الطبقات البينية الوسيطة، لأنها الأغلبية السكانية، وهي الفاعلة في نمط الانتاج الحقيقي الموجود، أو مصطدمة معه، أو مرتقية اجتماعياً بواسطته.

إذا كنا لا نريد أن نبحث في الاقتصاد، وإذا كنا نعتبر كل قطر نمط انتاج قائماً بذاته، ونعتبر أن التشابك والتداخل بين الأقطار العربية ضرب من الفكر القومي المجوج، فاننا لم نصل بعد إلى درجة الصفر من التفكير، حيث تبين تجربة الاتحاد السوفييتي صعوبة التنمية على رقعة بحجم الاتحاد السوفييتي، أما الحديث عن بناء الاشتراكية في بلد مثل اليمن الديمقراطي ذي المليوني مواطن، هو نموذج عن هذه القطرية المبكية التي لا علاقة لها بالاقتصاد، ولا علاقة لها بالعصر وإنما لها علاقة بالتبشير. إذا لم يكن العالم الحديث هو عالم الاقتصاد، والماركسيون أولاً هم الواعون لدور الاقتصاد واستباعاته الاجتماعية، فأنا لا أعرف ما هو عملهم. من هنا أرى أن المراجعة هي بناء وعي يحدد، في البدء، الاطار. واعادة الاعتبار إلى كون المجتمع تحركه المصالح، وليس مجرد أفكار فقط.

المراجعة تعني رسم الاطار (الحد الأدنى) الذي بدونه لا مجال للتفكير. اطار الحد الأدنى، اسمه من المحيط إلى الخليج، واسمه البحث في قضايا أولية، من نوع الثروة القومية وبادارة من هي، ومن يسيطر عليها، وكيف تستخدم، ومن أجل من أن النظام العالمي الجديد هو نظام من يسيطر على الموارد الطبيعية في العالم. نحن نساهم في أنظمة تبيد كل ما هو بشري وطبيعي وكل ما هو جزء من تراثنا في كل مدينة عربية. ونصفق لها باسم

ومع ذلك نكتشف أهمية البيئة انطلاقاً من كارثة تشيرنوبيل!!

* وماذا عن العالم الثالث؟ وهل أصبح مهمشاً وتحول الجدار الحديدي، كما يقولون، بين الشمال والجنوب بدلاً من الشرق والغرب؟ وماذا يمكن أن يكون إسهام حركات التحرر والقوى التقدمية في العالم الثالث في مجال بلورة وتطوير ماركسية اليوم؟

** لم يتوقف مرة الصراع المسمى صراع جنوب ـ شمال. الذي انتهى هو الانشقاق ضمن الشمال، الشرق والغرب كانا شطري الشمال. هذا الصراع لم يتوقف. أما عن النظام العالمي الجديد، فأكثر الناس الذين يتحدثون عنه هم الصحافة العربية، أما المعنيون في بناء النظام العالمي الجديد، فانهم لا يروجون له. وبالتالي، هناك آليات تعويض لشعوب مقهورة قومياً مثلنا. هذا أمر مفهوم. وأن يكون هذا مفهوماً، فلا يعني أن يكون صحيحاً. فهذا يجرنا إلى البحث الدائم عن معنى الفوضى الاجرامية التي يواجهنا بها الغرب، وهو دائماً بحث ملون بفكرة ان السلام والاستقرار هما مصلحة غربية واميركية. ثانياً، الوهم الآخر هو ما سمي «هبوب» رياح الديمقراطية «مثل ما كانت تهب «رياح الاشتراكية». برأيي، هذا فكر وضعي تعويضي لا ينتج أية معارف. لست أدري ما هو النظام العالمي الجديد. ولكن أدري انه، ومن أمراض الانتلجنسيا العربية كثرة الحلول، توجد حلول أكثر مما يوجد تعيين للمشاكل. إذا كان المطلوب تعيين المشاكل، فانا لا أرى غير الاستهتار الغربي بالمنطقة والأخذ منها كل ما هو استراتيجي وأساسي وإهمال الباقي.

ماهو استراتيجي وأساسي قد أخذ في حرب الخليج، وهو السيطرة على النفط وتدمير القوة العربية العسكرية الصناعية الرئيسية المتمثلة في العراق. هذا ما هو أساسي. الفرعي، وان كان هذا لا يرضي الكثير، هو ما يمكن في ضوء الاختلالات في موازين القوى ترتيبه على صعيد الصراع العربي ـ الاسرائيلي. وهذا لا يمكن إلا أن يدفع ثمن كل هذه الخسائر.

لا أحد يمنح أحداً ديمقراطية. وأجازف بقانون شرط نمو وانتعاش الديمقراطية في المركز الغربي هو انعدامها في الأطراف. وهذه قاعدة أكثر ما تنطبق على بلادنا. بمعنى لا أعرف عن حالة واحدة منذ بداية القرن تتدخل فيها أطراف غربية لفرض الديمقراطية في بلادنا. أعرف عن حالات تدخل لفرض دكتاتوريات عسكرية. هذه المناشدة المحزنة هي تعويض أو هي استغناء عن النضال لفرض الديمقراطية وانتزاعها، وهي ديمقراطية يجب أن تفرض ضد الأنظمة، مثل ما ستفرض ضد سند الأنظمة، والتي هي القوى الغربية، وعلى رأسها اميركا. انا لا أستطيع أن أتصور ديمقراطية بدون نضال. والديمقراطية منطق منسجم. لاتستطيع أن تكون ديمقراطياً في بلدك ومؤيداً لدكتاتور في بلد ثانٍ. وهي تفترض مستوى من احترام الشعب وهكذا فاني أضع نفسي مع الذين يؤثرون المجازفة بناء على رأي الشعب، أي يؤثرون القبول إذا كانت ارادة الشعب الجزائري هي أن تمثلة جبهة الانقاذ ولانني أعتبر شعبي بالغاً «سن الرشد» مثل أي شعب آخر، خليقاً بأن يحكم نفسه بنفسه كما ارتأ، وان يدفع الثمن ومسؤولية ما يصنع. الذي يقرر أن ينتخب «الانقاذ» فاعلاً ذلك ضد ارادته، أو بسبب نوع النظام الذي أدى بالاكثرية الشعبية إلى ذلك، فأنا من الذين يؤيدونه. عندما تختار أكثرية شعبية حزباً معيناً، يجب أن يسمح لها بأن تتحمل مسؤولية خيارها، وبغير ذلك نحن شعوب قاصرة أو ستبقى قاصرة، وستبقى مهمة الرجل الأبيض أن يعلمنا مالم نتعلمه. وهنا الفكر الطليعي (!!) ينتهي بتأييد السلطة ضد الشعب.

* لم تتحدث عن اسهام حركات التحرر والقوى التقدمية في العالم الثالث في مجال بلورة وتطوير ماركسية اليوم. أو ان شئت: ما هي مهام هذه القوى الآن؟

** أعتقد انه الجواب البسيط هو الذي يبدأ من الوصف، وهو الأخذ بعين الاعتبار بأنه لن يأخذ أحد تعويضاً عن انهيار الاتحاد السوفييتي. مثلما يعتقد

الفكر العربي المهزوم الذي يرى أن الهزيمة العسكرية تولد انتصارات سياسية. طبعاً سيزداد التهميش لهذا العالم (العربي) لأن الاتحاد السوفييتي، على الأقل، كان يساهم في التنمية، تنمية هذا العالم، ولو بشكل ضئيل، الآن الرأسمال هو منطق لايحيد، هو منطق السعي نحو أعلى معدلات الربح. ان رأس المال ليس جمعية خيرية، لن يأخذ أحد تعويضاً لأنه قضى على الشيوعية. فهناك تهميش لهذا العالم. ولكن التهميش لن يتم بلا ثمن، لأنه سيترك أو سيخلف أشكالاً من الاحتجاج.

لن يتم التهميش بدون ثمن، ولن يتم بدون محاولة هذا العالم ذي الامتيازات ضرب هؤلاء المهمشين ورفع السدود في طريقهم وتشجيع الاقتتال فيما بينهم... الخ ودون الرؤى الكارثية، نحن مقدمون ليس على نظام عالمي جديد، وإنما على أشكال جداً معقدة من الصراعات والنزاعات، من أسبابها التناقض الحقيقي في ظل السياسة الاميركية بين الانعزال والتنعم لهذه الجزيرة وما فيها، وبين التداخل المحدود الذي لا يستطيع ولا يريد أخذ مسؤولية النيابة عن هذا العالم. فالحصيلة لديك عالم ذو قطب سياسي واحد، ولكنه موزع إلى ثلاثة أقطاب اقتصادية. أولاً، مستوى التناحر فيما بينها حقيقي. وثانياً، اهمالها شبه المشترك لسائر العالم. ثالثاً، لست فرحاً بالخيارات التي تتم، ولكنني أعتبر البرلمانية والنظام التمثيلي يجب أن يبدأ من مكان ما لا يمكن أن يبقى الأمر مؤجلاً دائماً بحجة أن الاقطاع وملاك الأراضي هم المسيطرون، ثم بحجة التنمية (التي لا تنمي شيئاً والتي باسمها يجب أن تدفع أجيال بكاملها الثمن ضحية الاستبداد العسكري)، أو باسم الصراع ضد اسرائيل وأخيراً باسم لا حرية لأعداء الحرية...

أما عن الثقافة، فالثقافة العظيمة تبنى وتترعرع في ظل القمع بقدر ما تترعرع في ظل الديمقراطية، وعلى كل حال معظم الأعمال الكبيرة في العالم وفي بلادنا هي نتاج المعاناة وليست نتاج الراحة والارتخاء، وهي نتاج الجدل الديمقراطي.

هذا الوصف البسيط هو نقطة الانطلاق في التفكير بما هي المهمات وما هي الأفكار والبرامج والرؤى والاشكال المناسبة للمستقبل.

العودة إلى رومانسية الماركسيين الأوائل

ميشـــيل كامـــل

العـودة إلـى رومـانسيـة الماركسيين الأوائل

شارك في هذا الحوار الذي جرى في باريس الزميل الصحفي والقاص السوري جميل حتمل.

* في البداية، ماهي دلالة الاضرابات الأخيرة في المانيا واحداث لوس أنجلس في اميركا؟

** الرأسمالية، أصلاً لم تخرج من أزمتها، بعكس الرأي السائد بعد انهيار الاتحاد السوفييتي.

الرأسمالية فقدت عنصراً أساسياً اليوم، يمكن أن يضعفها، فهي فقدت المنافس حيث لم يعد يوجد قوى تقف أمامها اليوم. انها الآن تبحث عن عدو جديد، تحاول أن تجعل العدو الجديد الحركات الأصولية في العالم العربي أو البلاد العربية عموماً، طبعاً مع الأخذ بعين الاعتبار ان موقف الدول الرأسمالية من الحركات الاصولية يتغير تبعاً لمكان وجودها. لذلك نرى أن الموقف مختلف ومتمايز. منها، بين بلدان مثل الجزائر، السودان، ايران الخ.

ميشيل كامل عضو قيادة حزب الشعب الاشتراكي المصري. ورئيس تحرير مجلة اليسار العربي.

* وهل تجليات الأزمة مختلفة عن تجلياتها ما قبل انهيار الاتحاد السوفييتي برأيك؟

** لاشك بأنها ستحتد أكثر، لأنه في المرحلة السابقة كان هناك عنصر التنافس والتناحر مع الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية عموماً، والتنافس أيضاً مع الأحزاب الشيوعية الموجودة في هذه البلدان هنا، لنأخذ مثلاً الحزب الشيوعي الفرنسي الذي يضطهد هنا. أو الذي ينكمش في الحقيقة فنحن نجد أن أغلب المكاسب التي انتزعت للطبقة العاملة الفرنسية ولعموم الشعب الفرنسي. تحققت بفعل نضالات الحزب الشيوعي والاضرابات المتتالية والمتتابعة للحزب الشيوعي وللـ «سي جي تي» ـ اتحاد نقابات العمال ـ لأنها مرتبطة بالحزب الشيوعي، لكن الناس لا تفكر بالمكاسب المتحققة، لأنها نالتها لذلك تفكر في أمور أخرى، وهنا يأتي دور الاعلام في التغطية على ذلك.

وهكذا نجد أن الرأسمالية استفادت، بشكل غير مباشر من وجود حزب نقيض، وبالتالي نرى أن الرأسمالية عموماً استفادت من وجود النظام النقيض على الصعيد العالمي، فوجود النظام النقيض دفع العالم الرأسمالي إلى المزيد من تحديث ثورته الصناعية، مستفيداً من التقدم العلمي والتكنولوجي الذي حصل في العالم وغياب هذا النقيض، الآن سيفاقم الأزمة، وأعتقد أنها ستأخذ تجليات مختلفة عن المراحل السابقة.

* ولكن ماذا عن الاتحاد السوفييتي؟ هل كان الانهيار الذي حصل انهياراً حتمياً..؟

** بخصوص الاتحاد السوفييتي، فأنا اعتبر ما حصل عام ١٩١٧ ثورة، وثورة مجيدة، وهذا الكلام ليس تغنياً بأمجاد اكتوبر، من فترة قريبة، شاهدت ريبورتاجاً عن الثورة الروسية في التلفزيون الفرنسي. الناس كانت تذهب إلى الموت وهي تبتسم وتغني وتنشد هذه الرومانسية التي كانت لديهم، لدى الشعب السوفييتي. والمشاركة الكبيرة في الثورة شيء لا يصدق. ولكن الذي

حصل بعد ذلك هو انحسار لهذه المشاركة في الثورة فقد أصبحت هناك طبقة جديدة أبعدت الناس عن المشاركة وأصبح هم الحزب الشيوعي تحديث الصناعة العسكرية وليس التقدم الاجتماعي والديمقراطي الحقيقي، والذي كان هو الأساس الفكري للماركسية ـ اللينينية لقد تم تجاهل هذا العنصر الانساني. من هنا، كنا نرى أن نظام الحوافز مثلاً، في الاتحاد السوفييتي كان موجوداً فقط من أجل تنمية ثروة وسيطرة البيروقراطية.

فقد كانت الحوافز تذهب إلى مجموعة من الوصوليين الدائرين في فلك عناصر البيروقراطية السوفيتية.

* الماركسية منذ ادبياتها الأولى تحدثت عن أزمة الرأسمالية، ما حصل يدل على أن الأزمة الأكبر كانت في المعسكر الاشتراكي نفسه.. وكان واضحاً ان الرأسمالية قادرة على تجديد نفسها من داخلها؟

** الماركسية هي المنهج الاستنتاج ليس له علاقة بالمنهج، الاستنتاج ليس له علاقة بالمنهج، الاستنتاج هو استخدام المنهج، وعلى أساسه يتم تحليل الاستراتيجية والتكتيك. ما حصل هو خطأ في استخدام الفكر الماركسي. من هنا نجد أن الاستنتاجات التي حصلنا عليها لاتخدم الفكر الماركسي. أنا لا أدافع عن الخطأ. أنا لا أدافع عن الماركسية باعتبارها نظرية جامدة أو استنتاجات خاطئة.

هنا يطرح السؤال التالي: هل كان لزاماً أن يحصل ما حصل في الاتحاد السوفييتي والمعسكر الاشتراكي؟

الاجابة برأيي لا. كان يمكن الا يحصل ذلك واستطيع أن أقول أن القيادة السوفييتية منذ ستالين وقعت في سلسلة من الأخطاء. وخاضت صراعات وتصفيات في صفوف الحزب الشيوعي السوفييتي على مسائل وخلافات جزئية، وتمت تصفية مجموعات قيادية هي جزء من الصف الشيوعي ستالين هو أول من أسقط العنصر الانساني وأسقط الدفاع الطوعي الناتج عن الحماس والرومانسية التي تحدثنا عنها، ولعب دوراً في عسكرة الناس، حيث

فرض عليهم بالقوة عملية التصنيع السريع لقد ضرب العنصر البشري عندما ألغى حقوقه في أكثر من قضية تحت دعوى عندما ننجز التصنيع نعطي للناس حقوقها. . ».

هذا الأمر أدى إلى رفض ذلك لأن الناس لا تشارك في الثورة ولا في التصنيع، إذا اقحمتهم في ذلك بالعنف. لأن النظرية الماركسية قامة على أساس استشراف التطور العلمي وتأثيره على المجتمع. . وزيادة فائض الانتاج من أجل أن نصل إلى العدالة الاجتماعية، ومن ثم الشيوعية ولكن ما حصل أن البلاد التي استخدمت ذلك (التكنولوجيا والعلوم) على صعيد الانتاج هي البلاد الرأسمالية وليس الاشتراكية. وهنا، دخلنا في عمق الأزمة، وخصوصاً بعد ادارة ريغن. . لأن «حرب النجوم» كانت هي الضربة القاضية، حيث بدأ التراجع في الاقتصاد السوفييتي، والذي لم يبدأ الا منذ عام ١٩٧٥ . وفي الثمانينات، كانت الضربة القاضية، لأن الدخول في المنافسة العسكرية جاء على قاعدة اقتصادية ضعيفة، ذلك لأنه لا يملك الاستثمارات الموجودة في الغرب. .

* ذلك بالرغم من كل الحديث كان يدور عن انتصار المعسكر الاشتراكي حتى بعد هذا التاريخ الذي نتحدث عنه؟

** اسمح لي، أنا منذ كنت شيوعياً. . وكل عمري كنت كذلك. . دائماً كنت أقرأ في كل المعلومات الصادرة هنا أو في موسكو، عن انتصار المعسكر الاشتراكي وتراجع المعسكر الرأسمالي. هذا غير صحيح. . وهذا الكلام كان تزويراً للحقائق، للأسف. . يمكن أن يكون هذا الكلام مقدماً بنيات طيبة، لا أحد يُخَوِّن أحد أو يخون كل شيء. ولكن هذا الكلام كان يسقط كل الاعتبارات الأخرى الموضوعية التي كانت تحصل في المجتمع الرأسمالي.

* تحدثت كثيراً عن مصطلح الرومانسية في النظرية الاشتراكية، والتي هي نظرية علمية. ماذا تقصد بهذا المصطلح؟

** لا يمكن فصل الرومانسية عن العلمية، وهي جزء من الطابع الانساني للفكر العلمي. فكم هي كبيرة تضحيات البشرية من أجل العلم والتحرر وحقوق الانسان، كانت الناس فعلاً تموت وهي تبتسم فالرومانسية، بالنسبة لي هي ثقة في المستقبل، الايمان بالمستقبل والايمان بالبشرية، لأن الايمان بالبشرية شيء والايمان بالذات شيء آخر. الرأسمالي أناني ولا يفكر إلا بنفسه، وبالتالي لا يمكن أن تكون لديه الرومانسية التي اتحدث عنها.

الرأسمالية دائماً تأخذ طابعاً أكثر طفيلية، الفائدة والمنفعة الذاتية هي في المقدمة على أي شيء آخر. أما بالنسبة لي وللماركسية فان الرومانسية تكون للحركات الثورية. فالنظرية هي التي تقود حركة ثورية. الرومانسية هي الوقود للحركة الثورية، ولا أقصد بالرومانسية أن تفكر تفكيراً مثالياً في ما فوق الطبيعة مثلاً.. الخ. بل أن تكون لك آفاق تناضل من أجلها وتفكر بها لمصلحة البشرية.

* ولكن مثال الشيوعي الذي يقابل الموت بابتسامة، وهو كمثال المسيحيين والاسلاميين الأوائل الذين كانوا يقابلون الموت بابتسامة أيضاً.

** هذا جزء من مأساتنا اليوم، الجماعات الاسلامية أكثر نضالية من الشيوعيين، أقول ذلك بصراحة شديدة، لأن هذه الجماعات الأصولية تناضل وهي تعتقد أنها ذاهبة إلى الجنة، ولكن بالنسبة لي، اعتبر أن الثوري أكثر هو الذي يعرف أنه غير ذاهب إلى الجنة، ومع ذلك يقف ويموت من أجل العدالة، نحن بحاجة إلى العودة إلى روح الماركسيين الأوائل.

* هل تعتقد أن ماحصل في الاتحاد السوفييتي، يترك آثاراً على مصداقية الفكر الماركسي والايمان به؟

** طبعاً، ترك تأثيراً ضخماً، ومن أسباب ذلك هو الايمان بالنصوص أكثر من الايمان بالمنهج وأكثر من الايمان ببناء الاشتراكية، وخاصة إذا نظرنا اليوم

إلى مستوى التقدم العلمي. الكمبيوتر، مثلاً، يقوم الآن بـ ٨ مليارات عملية في الثانية، وما زلنا نجد ماركسيين يفكرون بطريقة ترديد النصوص، أصلاً لو لينين كان حياً اليوم لن يكتب الذي كتبه عموماً. هذا لا يعني بأنه لم يكن قد اكتسب الاساسيات والمنطقات للتفكير الصحيح، المنطلقات والاساسيات واحدة، على الرغم من التقدم العلمي الذي نشهده، هذه الاساسيات هي العدالة الاجتماعية، الصراع الطبقي.. الخ، وهذا الذي يجب التمسك به وتطويره أما أن نتمسك بأمور تجاوزها الزمن والعصر فهذا خطأ وجمود في الماركسية، وقد يساهم في التشكيك بمصداقية الفكر الماركسي.

أنا عشت في زمن كان هناك في مصر كلها ثلاثة أجهزة هاتف فقط. والذي لديه راديو في حينه كان يعتبر من الاثرياء.. الآن نحن في عصر العلم، وبالتالي مفروض على الماركسيين ان يستفيدوا من التقدم الحاصل ويعملوا على تطوير المنطقات الماركسية بما يتناسب والتقدم العلمي، لأن النظرية الماركسية في الأساس هي نظرية علمية.

ويجب عدم السكوت على السلبيات.. نحن انفسنا نرى السلبيات الكثيرة ولم نكن نتكلم عنها (من باب عدم نشر الغسيل الوسخ)، وهذا خطأ.

* بعد انهيار الاتحاد السوفييتي. هل انتهى ما يسمى صراع الشرق والغرب، وبدأ صراع جديد، كما يقولون صراع شمال ـ جنوب؟

** اعتقد ان الصراع الأساسي هو شمال ـ شمال، ولكن مع الأخذ بعين الاعتبار أن الأرض التي تدار عليها المعركة الآن هي البلاد العربية ودول العالم الثالث عموماً. طبعاً لاأنفي ازدياد الصراع بين العالم الثالث أو ما يسمى دول الجنوب، والعالم الرأسمالي المتقدم صناعياً، ولكن في هذه الفترة، قد يتركز الصراع أكثر بين دول الشمال من أجل فرض السيطرة والنهب.

طبعاً، حرب الخليج هي شكل من أشكال الصراع بين دول الشمال، بقدر ماهي حرب على دول العالم الثالث، والمنطقة العربية خصوصاً، أميركا كانت وراء هذه الحرب من أجل السيطرة الأكبر على منابع النفط بهدف

ضرب ألمانيا واليابان، مع انهما صديقين وحليفين.

طبعاً، أنا هنا لا أقف مع صدام، فهو أخطأ بل هو مجرم في حق الشعب العربي.

مايحصل الآن مع ليبيا هو أيضاً صراع بين دول الشمال. وكنا نلاحظ في وضع ليبيا، نجد ان انكلترا وأمركا متشجعتان أكثر من فرنسا في ذلك. حتى ان المندوب الاميركي في الأمم المتحدة قبل التصويت على فرض العقوبات على ليبيا، قام بتهديد الصين إذا استعملت حق الفيتو. من هنا، أعتقد أننا لا نعيش في عالم القطب الواحد، كما يقول البعض فنحن نشهد الآن جملة من الصراعات بين دول الشمال، وعنوانها الصراع بين هذه الدول من أجل السيطرة أو اقتسام واعادة السيطرة على العالم الثالث بعد نهاية الحرب الباردة. طبعاً، أميركا هي الآن في مركز القوة، لأنها تملك السلاح الأقوى في العالم، وبالتالي قادرة على استخدامه من أجل ذلك. هي ستحاول استخدام تقدمها العسكري والسياسي، لتغطي تراجعها الاقتصادي أمام اليابان وأوروبا.

وهذا يترافق مع ضعف عربي، لاحظ ان مصر تحاول وقف الهجمة الشديدة على ليبيا، لأن ذلك: أي ضرب ليبيا، يهدد جزءاً من مصالحها.. ولكن في النهاية، مبارك يقول لك أنا معروض علي ان آخذ ٢ مليار و ٣٠٠ مليون دولار، إذا لم آخذها، كيف يمكن أن اطعم شعبي وهذا منطق صحيح، ولكن هو في نفس الوقت نتيجة للسياسة المصرية التي لم تستطع أن تؤمن اكتفاء ذاتياً، وان تنوع في الانتاج، لذلك نراه يتراجع أمام الابتزاز الاميركي والغربي.

طبعاً، أنا أتحدث عن الهجمة على ليبيا هذا لا يعني أنني أقف مع كل سياسات ليبيا ولكن الآن في حالة ليبيا، لأول مرة تكسر قاعدة اساسية في التقاليد التي فرضها العالم في السابق. بغض النظر عن طبيعة هذه التقاليد، وعن مصالح من تمثل.. وخطورة الوضع في ليبيا، هو انه، بعد الانتهاء من ليبيا، سيأتي الدور على سوريا، وبعد ذلك ايران والهدف الاميركي، واضح هو الهيمنة على موارد العالم الثالث من أجل أن تعوض عن حالة التخلف في

اقتصادها العالمي أمام اليابان وأوروبا.

* كريم مروة طرح مسألة التحالف مع القوى الاسلامية ماهي وجهة نظرك في هذا؟

** أنا أقول: حذارِ، حذارِ، من التحالف مع أي جماعة أصولية.. طبعاً التدين والدين مسألة أخرى، لأنني، موضوعياً، إذا تحالفت مع هذه القوى أكون قد عدت إلى القرن الرابع أو الخامس ومهما كان القول بان هذه القوى تعادي الاستعمار والامبريالية، لكن هذا الموقف يتغير بسرعة، ولدينا تجربة ايران وأكثر من تجربة في ذلك.

* طالما دخلنا في مسألة التحالفات. ما هو القوام الطبقي لهذه التحالفات، وخاصة إذا نظرنا إلى البنية الاجتماعية والنسيج الاجتماعي العربي الذي أصابه التفكك لدرجة اننا لم نعد نستطيع ان نتكلم عن طبقة عاملة مبلورة وموحدة في أي قطر عربي؟

** حقيقة هذا الكلام صحيح نسبياً.. وهي مسألة معقدة خذ مثلاً، الذي حصل في الجزائر جبهة الانقاذ كان يمكن أن تكسب في الانتخابات. وان تصل إلى السلطة.. ولكن حصل بعد ذلك الانقلاب العسكري ولكن عندما أقارن من منظور تاريخي بين الاثنين، النظام القمعي غير شرعي، وهناك نظام يعيد إلى القرون الوسطى أكون مع الأول. طبعاً إذا كنت مجبراً على الاختيار بين الاثنين.. أنا لا مع هذا ولا مع ذاك. وخاصة ان الديمقراطية، من منظور جبهة الانقاذ ديمقراطية مشوهة. وحركة الاحتجاج والأصوات التي حصلت عليها جبهة الانقاذ هي نتيجة عدم الوعي والفساد القائم بسبب النظام السابق.. دائماً يتحدث البعض عن ان الشعب «عايز كده» وان الشعب دائماً صحيح وأن الذي كان في الجزائر صح من وجهة نظر جبهة الانقاذ. هذا يعني برأيي، انهم يريدون أن يرجعوا بنا ١٠٠ سنة إلى الوراء.. امنع الثقافة، أمنع المسرح، والسينما، وألبس النساء الحجاب..

وأخيراً، نقول أن الشعب عايز كده. وكذلك الأمر بخصوص الموقف من الامبريالية دائماً يتم التراجع عن ذلك كما ذكرت.

خذ، الان مثال الجماعات الاسلامية في مصر، اليوم، يقولون لك نحن عايزين التحالف مع الشيوعيين، نحن لسنا ضد الشيوعيين، نحن مع تعدد الأحزاب.. ولكننا نجد أن الكلام للاعلام فقط.. وهو تناقض مع صلب تفكيرهم وفي صلب الشريعة. ولو استطاعت هذه القوى استلام السلطة في مصر ستذبح حتى اقرب حلفائها وليس الشيوعيين فقط، وهذا برأيي نفس الحكاية في الجزائر. بالنسبة لموضوع جبهة الانقاذ في الجزائر، فأصلاً لم تكن الانتخابات في الجزائر منزهة أو ديقراطية بالمفهوم الصحيح والمتعارف عليه وان كانت التجاوزات قد جرت بشكل أكثر كفاءة ومن خارج السلطة أساساً، عندما استخدمت جبهة الانقاذ مختلف أساليب الضغط والتلاعب في أوراق الانتخابات. اضافة إلى التأثيرات الديماغوجية للاعلام المشوه المخادع. ثم الاستفادة من أصوات الاحتجاج غير المنتسبة إليها، والتي تختار الخصم بسبب نقمتها على الأوضاع ورفضها للسلطة القائمة.

إن الاصولية والتعصب الديني لا تختلفان كثيراً عن الفاشية، والتعصب هنا يجب أن يميز بوضوح عن الدين والوطنية، ولو أن بعض القوى نجحت في التصدي والقضاء على الفاشية والنازية في بداية العهد بهما، وهما اللتان كانتا تتمتعان بتأييد شعبي داخل المانيا وايطاليا، لو أن هذا حدث لجنب البشرية تلك الكوارث والمذابح البشعة التي شهدتها في الحرب العالمية الثانية واستناداً إلى هذه التجارب المريرة اعدت العديد من الدساتير المتقدمة التي ترفض السماح للأحزاب القائمة على أسس طائفية أو عرقية طبعاً، اعتقد أن هناك استثناءات في هذه المسألة، مسألة التحالف مع القوى الاصولية ومن هذه الاستثناءات (الوطن المحتل فلسطين) ولكن أعتقد أنه يأخذ اشكالاً مؤقتة جداً.

لذلك أنا من منظور تاريخي لن أكون مع نظام استبدادي من القرون الوسطى وإذا فرض الخيار علي سأختار نظام الاستبداد من العصر الرأسمالي،

على الرغم من ادراكي لانتشار هذه التيارات، الآن بعد تراجع المد القومي وانهيار الاتحاد السوفييتي وتراجع مصداقية الفكر الماركسي لدى الناس ولكن المهم الآن هو أن نحاول تحييد هذه القوى طبعاً الناس عموماً متدينة، ولكن هذا لا يلغي أنها مناضلة وطنية، ولكن إذا كانوا ينتمون إلى هذه الجماعات فأنا لست معهم. المهم الآن هو اعادة اعتبار الناس وعلى أسس علمية، وليست غيبية. ومن هنا ضرورة التمسك بتطوير الماركسية وتحديثها. وهذا يحصل في كل دول العالم خذ مثلاً ايطاليا. الشعب الايطالي اختار وصوت إلى امرأة تعمل في أفلام الجنس، واختار اثنتين من حفيدات موسوليني هل يعني هذا أن الشعب الايطالي «عايز كده» الشعب الايطالي (وأنا اتحدث عن معرفة وعن علاقات مهمة بيني وبين الشيوعيين الايطاليين) الشعب الايطالي يريد أن يقول أن الحكومة الايطالية عاهرة، ونحن نختار لكم عاهرات. ونفس الشيء في فرنسا، فقد تم التصويت لمصلحة اليمين بسبب سياسة الاشتراكيين. وبالنتيجة كانت الخسارة للشيوعيين بسبب السياسة الخاطئة للحزب الاشتراكي.

* تحدثت في الأونة الأخيرة عن ضرورة لقاء حزبي فكري عربي هل هي دعوة لانشاء حزب عربي؟

** أنا لم أقصد انشاء حزب عربي ولكن هذا لا يعني أنني ضد نشوء حزب عربي.. وأنا ضد الفكرة التقليدية التي تقول أن المصري مصري وان السوري سوري، وأن الفلسطيني فلسطيني.. الخ. أو الفكرة التي تقول أن الذي يختلف معي أفصله. فأنا مع تجميع كل الجهود عندنا في مصر نجد بعض الشيوعيين يختلفون مع الشيوعيين الاخرين، فيذهبون للتحالف مع الجماعات الاسلامية والصراعات بين أطراف اليسار في مصر وحتى في الوطن العربي، تأخذ حدة كبيرة. وهم يبتعدون عن الوحدة. بينما نجد العبقرية لدى أميركا فهي تعطي السلاح لـ ١٥ ميليشيا اسلامية أساسية في افغانستان.. أعطتهم السلاح، لأن كل من يحارب النظام المدعوم من

موسكو فهو حليف لها نحن نجد بالمقابل غياب الوضوح الطبقي في صفوف قوى اليسار العربي.

أنا أقصد من الدعوة، الآن لقاء مجموعة من المفكرين الشيوعيين الملتزمين وغير الملتزمين بأحزابهم لمناقشة مشاكل الحركات الشيوعية العربية واليسار العربي عموماً. وأنا أؤكد على الشيوعيين من خارج تنظيماتهم، لأن الشيوعيين الذين مازالوا داخل تنظيماتهم عندنا في مصر لا يتجاوزون ١٠٪ من الشيوعيين المصريين الذين أصبحوا الآن خارج تنظيماتهم، لأنهم فقدوا الثقة بتنظيماتهم.

* هل هذا اقرار بفشل العديد من التجارب الحزبية؟

** نعم انه اقرار بذلك، نعم. هو كذلك. فنحن منذ نشوء الحركة الشيوعية في مصر لم نستطع أن نجد حزباً فيه منبران أو ثلاثة، لماذا الانقسام؟ ولماذا تفقد الناس الثقة بالعمل الحزبي؟ مئات الآلاف دون مبالغة دخلوا الحركة الشيوعية وخرجوا منها. أين ذهبوا؟ هل هم خانوا؟ لا أعتقد ذلك من أجل أن تعيد تجميع الناس يجب أن تتخلى عن المركزية الديمقراطية بمفهومها القديم يجب أن تأخذ شكلاً جديداً، وخاصة لجهة تعدد المنابر داخل الحزب الواحد وخاصة في مرحلة مثل هذه المرحلة التي تحمل الكثير من الضباب والتخبط يجب على الناس أن تجلس معاً، ومن غير ذلك لا تقوم قائمة لنا. ومع التأكيد على أن هذه المنبرية المتعددة لا تعني الفوضى وغياب الوحدة والاشكال التنظيمية التي تنظم هذه التعددية.

* تجلس الناس معاً، وهم نتاج المرحلة القديمة؟

** لا، نحن بحاجة إلى نوعية جديدة. إذا وجدت الفكرة تجد الناس الذين يقومون بها. هناك أجيال جديدة وهي متمردة على الأوضاع القديمة ولديها القدرة على التعبير عن نفسها لأنها بنت العصر وبنت التقدم العلمي. ومن بينها شيوعيون حقيقيون. وأنا أدعو مثل هؤلاء لأن نبدأ بانشاء حلقات

ماركسية كما فعل لينين تحت شعارات عريضة مثل وحدة القوى المعادية للامبريالية والتخلف ومن أجل ديمقراطية حقيقية.

أما بخصوص قضايا الخلاف التي تحصل وهي قضايا اشكالية فيجب حلها داخل عمل هذه التجمعات، داخل الأحزاب وبدون تفتت وبدون الفوضى. الوحدة أساساً، وليس عبادة الانشقاق. من هنا أدعو إلى مثل هذا اللقاء بدون فيتو على أحد. شرط أن يسهم في النقاش الفكري الذي سيرفد ويطور الماركسية اليوم. خذ مثلاً مفكراً كبيراً مثل سمير أمين، على الرغم من أنني اختلف معه، ولكنه مفكر مهم وأنا أقرأ له دائماً، وكل ما يكتبه أحاول متابعته. وكان يعتبر في مصر خارج الحركة الشيوعية، على الرغم من أنه أغنى الفكر الماركسي كثيراً في الكثير من القضايا.

أنا أدعو إلى لقاء هؤلاء المفكرين ليس من أجل تكريسهم لقيادات فكرية على الحركة الشيوعية، ولكن من أجل المساهمة في عملية تفتيح وحل المشاكل التي تعانيها الحركة الشيوعية العربية، ومن أجل اعادة الثقة للناس على أساس فكري وموضوعي وليس على أساس الأوهام.

الستالينية
ليست هي
الماركسية

ميشـــيل كيلـــو

الستالينية ليست هي الماركسية

* انهيار الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي فيه، بعد الانهيارات التي حصلت في بلدان أوروبا الشرقية الأخرى خلال العامين الماضيين، صدم العديد من ملة الأفكار الاشتراكية في منقكتنا والعالم، ما هي برأيكم الأسباب التي أدت إلى هذا الانهيار؟ وهل كان هذا الانهيار حتمياً؟

** هناك أسباب عديدة أدت إلى انهيار الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي السوفييتي، بعضها مباشر وبعضها بعيد الغور، بعضها حدثي وبعضها بنيوي - هيكلي، من الأمثلة على الأسباب المباشرة فشل ثم انهيار مشروع اصلاح النظام الاقتصادي والسياسي السوفييتي، الذي تصدت له النخبة السوفييتية الحاكمة، وكان هدفه إزالة عيوب ونواقص النظام وتحديثه بطريقة تجعله ينافس بنجاح النظام الآخر، الرأسمالي العالمي، على الصعد الاقتصادية والسياسية والعسكرية والايديولوجية التي تم بها، وإلى الأسلوب الذي اعتمد

ميشيل كيلو كاتب ومفكر ماركسي سوري، صاحب العديد من المؤلفات والترجمات والمقالات الفكرية - الاقتصادية - السياسية. الجادة في أكثر من دورية عربية.

فيها وقام على تأسيس «لجان البيروقراطية الحزبية والدولتية» الممسكة بالسلطة وبالاقتصاد، بأمل ان هذه اللجان ما إن تؤسس حتى تعبيء الشعب وراء مطلب الديمقراطية، الذي سيفرضه الشعب المنظم في اللجان على الطبقة السائدة. فيتم هكذا استدراك المرحلة الديمقراطية من الثورة الاشتراكية، وهي مرحلة كان يجب أن تمهد للثورة الاشتراكية لا أن تليها، لكن ظروف تكون الاتحاد السوفييتي جعلتها تتأخر قرابة سبعين سنة، لتبدأ في النصف الثاني من الثمانينات هذه الديمقراطية المستدركة، الآتية من تحت، ستتسبب باحداث تبدلات ثورية كبرى على مستوى السلطة، تؤدي إلى القضاء على طابعها البيروقراطي، الذي أدانه لينين وحذر منه، وقال عنه في نص شهير من العشرينات انه سيؤدي إلى اقامة دولة فاسدة وغير اشتراكية في الاتحاد السوفييتي.

غير أن هذه الخطة لم تنجح لأسباب عديدة، أهمها أن «اللجان» لم تعبيء الشعوب السوفييتية في النضال من أجل الديمقراطية والثورة الثانية، بل أثارت كل ما كان مختزناً في المجتمعات السوفييتية من صراع ونزاعات قومية وطبقية وسياسية وأثنية ومذهبية وعرقية... الخ، مما اضطر القيادة الاصلاحية إلى الاستعانة بقوى الدولة كي تكبح الصراعات والحركات الشعبية الوليدة، التي عبأت بسرعة خارقة طاقات شعبية كبرى أظهرت فراغ الإطار الحزبي ـ الشيوعي الحاكم وبعده عن أبناء وبنات شعوب الاتحاد السوفييتي المختلفة، خاصة عندما شرعت قيادات وقواعد شيوعية تنضم إلى اللجان الشعبية، ولكن ليس من أجل احداث الديمقراطية، بل من أجل خوض الصراعات القومية والطبقية والمذهبية.

بهذا الوضع اربك ايما ارباك السلطة الاصلاحية، التي أرادت تحجيم الطبقة الحاكمة بقدرات شعبية جديدة منظمة خارج الحزب الشيوعي، فوجدت نفسها تستعين بالأجهزة القمعية لهذه الطبقة كي تحجم الحركة الشعبية، التي كانت قد قطعت شوطاً كبيراً على درب الحرب الأهلية والحروب القومية والأثنية والعرقية هذا الوضع أحدث أيضاً انقساماً في النخبة

الاصلاحية ونقل الصراعات إلى داخل الحزب الشيوعي السوفييتي وواجه خطط الاصلاح بمعضلات لم تحسب لها حساباً، وانتهى إلى طرح شرعية النظام القائم على بساط البحث، وإلى بروز تيار علني وقوي في السلطة طالب بالقضاء على النظام.

بهذا التطور، انتقل مركز ثقل الاصلاح من البحث في اسلوب ترميم النظام إلى تعبئة القوى الراغبة في القضاء عليه. وقد أعلنت «القيادات الاصلاحية الجديدة» ان اصلاح النظام السياسي مستحيل دون اصلاحه الاقتصادي؛ وشرعت تعبيء قوى متنوعة المنابت حول هذا المطلب الذي يبدو ماركسياً جداً من منظور شكلي، قبل أن تعلن، بعد حين، ان الاصلاح الاقتصادي مستحيل تماماً بسبب جمود النظام السياسي، الذي صار قيداً يخنق طاقات الشعب ويتسبب ببؤسه وفقره وتأخره، بالقياس مع شعوب البلدان الصناعية الأخرى، هكذا قيلَ إذن أن اصلاح النظام الاقتصادي يتطلب اصلاح النظام السياسي، وان اصلاح النظام السياسي يتطلب القضاء عليه واحلال نظام أخر مكانه يرتكز إلى اقتصاد السوق، أي يكون نظاماً اقتصادياً رأسمالياً.

لا داعي للاسهاب في وصف الأحداث التي أدت، بعد هذه التبلورات في الخطط وعلاقات السلطة، إلى انهيار الاتحاد السوفييتي، فهي معروفة بما فيه الكفاية، المهم ان الاتحاد السوفييتي كان يزخر بمشاكل متأججة تحت صقيع السلطة البيروقراطية المتحجرة والفاسدة، وأن المساس بالوضع القائم كان كافياً، رغم انه حدث تحت قيادة قوى من السلطة الحاكمة هدفها اصلاحه وليس الاطاحة به. لالقائه في متاهة فوضى لم يخرج منها سالماً، بل أودت به تماماً وذرته كقشة في مهب الريح.

هل كانت هذه النتيجة حتمية، أي هل كان انهيار الاتحاد السوفييتي حتمياً؟ كلا، اعتقد انه لم يكن حتمياً، وان كان من الضروري الاعتراف، في الوقت نفسه بأن الوضع السوفييتي كان يختزن، منذ وقت طويل، عوامل تأزمية تزداد تفاقماً من يوم لآخر، تمنع تجدده وتجعل استمراره ممكناً بوسائل

الإكراه السياسي والاقتصادي والايديولوجي وحدها.

* ماذا يعني هذا الانهيار بالنسبة للنظرية «الاشتراكية العلمية»، أي الماركسية؟ وما الذي يمكن استخلاصه بالنسبة لمستقبل هذه النظرية؟

** هذا الانهيار هو قبل كل شيء انهيار للايديولوجية التي كانت سائدة في الاتحاد السوفييتي، عنيت الايديولوجية الستالينية، فهل تتطابق هذه الايديولوجية مع الماركسية أو مع «الاشتراكية العلمية»؟ اعتقد أن الستالينية ليست هي الماركسية، بل هي ايديولوجية السلطة في دولة تشرف على التراكم الرأسمالي وعلى تصنيع بلادها بوسائل تسلطية، من خلال ادخار اجباري ينقل إلى الصناعة، وبالتالي إلى المدينة، فائض عمل قوة الفلاحين، ويفرض على العمال (في المدينة إذن) بيع قوة عملهم بسعر ابتزازي، لعدم وجود سوق عمل أصلاً. مثل هذا النظام من اشتراكية الدولة يكون استبدادياً بطبيعته، لاسيما وانه انجز تحت ضغط الصراع مع الرأسمالية العالمية، وخلال وقت جد قصير، ما سبق لهذه أن أنجزته خلال بضعة مئات من السنين، عبر استغلال داخلي لا يرحم لشعوبها، واستغلال ابادي لشعوب البلدان الأخرى التي استعمرتها.

هذه الايديولوجية الستالينية تحدثت، على جسر اللينينية، لغة سياسية ـ طبقية ماركسية، لكنها كانت ايديولوجية دولة تسلطية بكل معنى الكلمة، ركزت جهودها ضد ما دعت إليه الماركسية، حول آليات احتواء المجتمع (السوفييتي في هذه الحالة) في اطار الدولة القائمة، التي عرضته، بسبب ضرورات التراكم البدئي لرأس المال، لاستغلال مكثف، وحرمته من حقوقه السياسية، فكانت، في المحصلة النهائية، شكلاً من أشكال السلطة البرجوازية، انتج طبقة برجوازية تستأثر بفائض قوة عمل المجتمع بواسطة الدولة، على طريق رأسمالية تختلف على الطراز الأوروبي الغربي للتطور الرأسمالي في أن برجوازيتها تتكون في سياق تحقيق حد معين من التراكم الرأسمالي وتنتج عنه، ولا تتكون في بدايته وتقوده، مثلما حدث في غرب

أوروبا، يفسر هذا البروز السريع، الذي بدا مفاجئاً للكثيرين، لتيار قوي داخل قيادة الدولة والحزب يطالب بالخلاص من النظام القائم والانتقال إلى اقتصاد السوق، إلى الاقتصاد الرأسمالي من النمط الأوروبي الغربي، حيث تلعب البرجوازية دورها الاقتصادي والسياسي ـ الاجتماعي صراحة، ودون أن تخفي نفسها وراء أحد أنا لا أقوم ببهلوانيات فكرية كي أبرىء الماركسية من نصيبها في اقامة النظام السوفييتي ـ الستاليني، بل أقول ان هذا النظام لا يتطابق معها كما لا تتفق هي معه، وان كان قد استخدمها ما وسعه الاستخدام كمصدر من مصادر شرعيته الايديولوجية. إلى ذلك، فإن الايديولوجية الستالينية خدمت أنظمة معادية للاشتراكية، بل وقمعية ومضادة للثورة بكل معنى الكلمة، لأنها كانت ايديولوجية تنظيم السلطة إلى أعظم حد ممكن ومنع تنظيم المجتمع إلى أقصى درجة ممكنة، فاتفقت مع مصالح الأنظمة التي تطلعت مثلها إلى الغاء المجتمع وتنظيم السلطة. فهل الماركسية هي ايديولوجية هذا الشكل من التنظيم السياسي، الذي أفادت منه حتى الفاشية والنازية، كما أفادت منه جميع أنظمة القمع والنهب المعاصرة في العالم بأسره؟

من المعروف أن ماركس بدأ بالفلسفة، ثم «نزل بها إلى الواقع التاريخي». كما قال هو نفسه، كي يحققها، فهل يتفق الغاء أي تفكير فلسفي في الاتحاد السوفييتي ـ صدر أول مدخل إلى الفلسفة في الاتحاد السوفييتي عام ١٩٤٧ ، وهو مدخل نعرف مصيره في محاضرة جدانوف حوله ـ مع نزعة الماركسية إلى تحقيق الفلسفة في المجتمع الإنساني؟

كتب انجلز ذات مرة مقالة لجريدة «العصر الجديد»، التي كان يصدرها الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني، وهو حزب قال انجلز انه يجمع بين العلم الاشتراكي والبروليتاريا، فحذفت فقرة من المقالة عندئذ أرسل رسالة للحزب يهدده بالقطع معه إن لم ينشر المقالة كاملة، ويسأل قادته: من أين أتيتم بفكرة وضع ضرورات الخط السياسي فوق ضرورات حرية الفكر؟ ومن قال لكم ان صحافة الحزب يجب أن تخضع للجنته المركزية، مع أن مهمتها

هي أن تكون مخبراً للتفكير الاجتماعي والسياسي للطبقة العاملة وللمجتمع بأسره؟ فهل اتفقت الستالينية مع رؤية كهذه أو عبرت عنها؟

قال ماركس في نقد حقوق الإنسان للثورة الفرنسية مايلي: لقد أعطت الثورة للانسان، أي للمواطن المجرد الذي لا وجود له، حقوقاً غير قابلة للانتهاك، وأعطت للمواطن، أي للإنسان الملموس والموجود حقوقاً قابلة للانتهاك، وكان حرياً بها، كي تكون ثورة لتحرير الإنسان، أن تعطي المواطن حقوق الانسان غير القابلة للانتهاك، فهل اتفقت نظرة الستالينية إلى حقوق الإنسان مع هذا الفهم؟

قال ماركس: إن الدولة يجب أن تبنى بطريقة تدفع بها إلى التلاشي كدولة طبقية، أي قمعية، باعتبار أن أية دولة طبقية هي بالضرورة دولة قمعية؛ طريقة تجعل منها جهازاً للادارة الاجتماعية، دوره الأساس أن لا يعوق تحرير المنتجين لأنفسهم، فهل كانت الدولة الستالينية نمطاً كهذا من الدولة؟

قال ماركس بالملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج. بعد أن عرف المجتمع بوصفه «هيئة من المنتجين الأحرار». فهل كانت ملكية الدولة لوسائل الانتاج في الاتحاد السوفييتي ملكية اجتماعية، ملكية هيئة من المنتجين الأحرار؟

كان ماركس يرى أن الايديولوجيا «هي وعي زائف لواقع زائف» وكان يرفض اعتبار الماركسية ايديولوجيا، بل انه صرخ قائلاً ذات مرة: «كل ما أعرفه هو أنني لست ماركسيا» عندما سمع رفاقاً له يؤدلجون آراءه. من جهة أخرى، فإن ماركس لم يلخص أو يعرف المقولات التي عمل بها كالطبقة والأمة والدولة، حتى أن أحد تلامذته ـ باولو مارمورا ـ تساءل بدهشة: أليست الماركسية هي مجموع ما أهمل ماركس تعريفه؟ كما انه لم يكتب ـ كما وعد ذات مرة ـ مقالة أو كتيباً حول الديالكتيك. و«نسي» وعوداً أخرى مشابهة، لأنه لم يكن يريد تحويل نظرته المادية إلى ايديولوجية مقوننة، بل اراد لمعارفه أن تبقى تحت سلطة الممارسة الإنسانية، نظرية كانت هذه أم عملية. فهل اتفقت الستالينية مع هذه الماركسية؟ قال ماركس في ملاحظة حول هيغل: «هكذا يكون العالم عالماً ممزقاً، يبرز في مواجهة فلسفة كلية بذاتها»..

وأضاف باستغراب: «يمكننا أن نتساءل ما إذا كان البشر يستطيعون العيش على الاطلاق وفق فلسفة كلية؟» فهل اتفقت ايديولوجية ستالين الكلية مع نزوع ماركس نحو فلسفة غير كلية؟

أخيراً: قال ماكس فيبر: «ان الفكر الأوروبي هو منذ عام ١٨٤٨ إلى اليوم حوار مع ماركس، فهو اما معه أو ضده». فهل تسقط الماركسية بسقوط ايديولوجية تتناقض معها في توجهها وأهدافها ووسائلها وطابعها؟ أن مشاكل الماركسية لا تتطابق ومشاكل الستالينية، بل يجب البحث عنها في صعيد آخر، اسهمت الستالينية في خلق قسم كبير منه، بالحجر الذي فرضته على الفكر الماركسي، وبسياسة تحويل الماركسية إلى ايديولوجية سياسية ذات طابع أدواتي لسلطة توحشية. أليس امراً ذا دلالة ان كثيراً من مؤلفات ماركس كانت ممنوعة في الاتحاد السوفييتي، وان المسموح به منها كان يمنع من آن لآخر وفق متقضيات خط ومصالح الطبقة الممسكة بالسلطة، بينما سمح على الدوام بتداول وطباعة مؤلفات ماركس في العالم الرأسمالي دون قيود أو رقابة؟

* الغرب الليبرالي اعتبر هذه الأحداث انتصاراً، للرأسمالية والليبرالية، تعززه النجاحات الاقتصادية للبلدان الرأسمالية المتقدمة للبلدان الرأسمالية المتقدمة والتنامي المتواصل للقوى المنتجة فيها مستفيدة من الاكتشافات العلمية ـ التقنية. كيف يمكن تفسير استمرار تنامي القوى المنتجة في البلدان الرأسمالية المتطورة، بالرغم من التناقضات والأزمات الدورية، في وقت تعثر فيه هذا التنامي في بلدان النموذج السوفييتي، الذي كان يوصف انه اشتراكي؟ ألا يبدو ذلك مفارقة إذا تذكرنا المقولة الماركسية الشهيرة بشأن تنامي التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في المجتمعات الطبقية؟

** لاشك أن ما حدث هو انتصار للرأسمالية والليبرالية وهزيمة للنموذج السوفييتي. أما تنامي القوى المنتجة في البلدان الرأسمالية فله أسباب عديدة منها: تبدلات هيكلية أصابت الرأسمالية داخل بلدانها وانصبت على تقييد

نهب فائض قوة العمل المطلق لصالح فائض قوة العمل النسبي. هذا التقييد زاد أجور العمال وأدى إلى ادخال شرائح متزايدة منهم باضطراد إلى الفئة العمالية المتبرجزة، مع انه قلص حصة الطبقة العاملة من الدخل الوطني. وقد تمكنت الرأسمالية من الانتقال إلى هذا النمط من الاستغلال بفضل نهب العالم المتأخر نهباً متفاقماً، أساسه زيادة تباعد حدي التبادل بلا انقطاع بين بلدانها من جهة وبين بلدان العالم المتأخر والعالم الاشتراكي في آن معاً، من جهة أخرى، وكذلك التحول من تصدير الرساميل إلى الاقتصادات غير النامية إلى استيراد ما لدى هذه الاقتصادات من رساميل، وتوسيع الأسواق الداخلية لكل بلد من الرأسمالية توسيعاً مضطرداً ورفع القدرة الشرائية للمستهلكين، كي يتم استهلاك معظم ما تنتجه الاقتصادات الرأسمالية المتطورة داخل بلدانها ذاتها، وأخيراً السعي إلى تعديل التقسيم الدولي للعمل، بحيث يتهمش العالم غير الرأسمالي تهميشاً متزايداً بلا توقف، يؤدي إلى افراغه من رساميله وخبراته ومواده الأولية، ويخرجه بدرجة متزايدة من الاقتصاد العالمي المتنامي بسرعة، فلا يكون لقانون فيض الانتاج فعله المعروف في اقتصاد البلدان الرأسمالية، بل ويقلع عن التسبب بالأزمات الدورية المعروفة للرأسمالية.

بهذه التبدلات البنيوية الأساسية، إلى جانب سياسة البرمجة المسبقة، ودور الدولة المتنامي كممول لقسم من العملية الاقتصادية وكمشرف عليها يحد من عشوائية السوق والمنافسة؛ وبانتشار المندمجات العملاقة في سائر فروع الاقتصاد، والميل إلى استغلال العلم استغلالاً متزايداً كقوة منتجة، أمكن للرأسمالية احداث نمو متعاظم في انتاجية العمل والاقتصاد، زاد من قدرة البلدان الرأسمالية على تحمل تكاليف البطالة العمالية المتزايدة، واجتذاب أيد عاملة وخبرات رخيصة من البلدان المتأخرة (ومن الآن فصاعداً الاشتراكية السابقة).

أما بالنسبة إلى التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في الرأسمالية، فانه لم يتفاقم، كما تنبأت الماركسية لدى دراستها لرأسمالية القرن التاسع

عشر، بل ان الانتاج قد اكتسب، مثلما قال لينين في كتاب «الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» وألمح ماركس من قبله في «رأس المال» طابعاً اجتماعياً متزايداً، عدل بعض التعديل مقولة علاقات الانتاج وخفف التناقض بين القوى المنتجة وبينها، كما تغيرت، من جانب آخر، طبيعة القوى المنتجة ذاتها، التي شهدت تبدلات واسعة غيرت البنية «البروليتارية» العتيدة لشرائح واسعة منها، خاصة في أعقاب الثورة العلمية ـ التقنية: الثورة الصناعية الثانية كما يسمونها.

* هل يمكن القول، مع بعض المدارس الفكرية، ان الاشتراكية لا يمكن أن تبنى إلا في بلدان بالغة التطور الرأسمالي، وان حرق المراحل ـ كما حدث في الاتحاد السوفييتي ـ والنزاعات الارادوية التي دفعت بهذا الاتجاه لا يمكن أن تغني عن ضرورة نضوج التطور الرأسمالي؟

** من المبالغ به القول أن الاشتراكية لا يمكن أن تبنى إلا في بلدان متطورة رأسمالياً، وان كانت درجة معينة من التطور الرأسمالي ضرورية لتسهيل البناء الاشتراكي، الذي يتعلق تقدمه ورسوخه بالتقدم الرأسمالي للبلد المتحول إلى الاشتراكية، بكلمات أخرى: بقدر ما يكون النقص في الشروط الموضوعية، الاقتصادية ـ أي الرأسمالية ـ أساسياً، بقدر ما تتعاظم الحاجة إلى الوعي الصائب، مع العلم بأن وعي النقص في الشروط الموضوعية هو الذي يدفع، في النهاية، إلى النزعة الارادية، وربما إلى حرق المراحل، على كل حال، فإن استنتاج ماركس حول الثورة الاشتراكية التي تصبح في أمر اليوم ما ان يبلغ تناقض قوى الانتاج مع علاقات الانتاج درجة معينة تكاد تكون قابلة للقياس الكمي. لهو تحذير صريح من الانسياق وراء النزعة الارادية، وتذكير بأن للثورة شرطاً يتحدد من خلال عوامل، أهمها وعي العلاقة بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج كمقولات اجتماعية موضوعية مستقلة عن الوعي، لكونها تتوقعن قبل أن يدركها الوعي، وعلى كل حال، فإن لينين عرف الاشتراكية خلال سجال له مع التيار اليساري في الحزب بأنها شركة سيمنس + سلطة

الطبقة العاملة. أي أنها أعلى درجة ممكنة من التطور الاقتصادي (الرأسمالي) + أعلى درجة ممكنة من السلطة العمالية المباشرة.

* وماذا عن العالم الثالث؟ وهل أصبح مهمشاً. وتحول الجدار الحديدي، كما يقولون بين الشمال والجنوب، بدلاً من الشرق والغرب؟ وماذا يمكن أن يكون اسهام حركات التحرر والقوى التقدمية في «العالم الثالث» في مجال بلورة وتطوير ماركسية اليوم؟

** ليس تهميش العالم الثالث أمراً جديداً، فهو مهمش منذ الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعد أواخر الستينات، والحقيقة أن تهميش بلدان العالم الثالث يتم بصورة يومية، ويأخذ شكلاً خطيراً يتجلى في خلق كتل وكيانات اقتصادية بداخله تكون أهلاً للانخراط في السوق الدولية، بينما يجري في الوقت نفسه اخراج غيرها بصورة متزايدة من هذه السوق، فتحكم عليها هذه السيرورة بهامشية تتفاقم إلى درجة تؤدي إلى تجويع وتهجير شعوبها وتشريدها في بقاع الأرض بحثاً عن كسرة خبز وشربة ماء في حين تتهدد هذه السيرورة كيانها السياسي بالاندثار والاختفاء، أما الكيانات التي تلحق بالسوق الرأسمالية فهي تلك التي تملك مواداً أولية استراتيجية أو رساميل يحتاج إليها الاقتصاد الرأسمالي، أو التي تملك نتيجة لذلك سوقاً مشبعة بتقسيم العمل والقوة الشرائية، المؤهلة بقدر ما لادخال بعض التقنيات الحديثة إلى حياتها الاقتصادية.

من جهة أخرى، فإن ديون العالم الثالث قد ازدادت إلى درجة أعجزت معظم بلدانه عن سداد الفوائد المترتبة عليها. وهو ما يهدد الاقتصاد العالمي الرأسمالي بمجموعه. خاصة بعد أن اشتدت حاجته إلى الرساميل. وصار يستوردها وينهبها كي يوظفها في بلدانه المتقدمة ذاتها.. مثلما يحدث للرساميل العربية، التي يسرقها شيوخ النفط ويودعونها في أسواق الأسهم الغربية، جلباً لحماية النظام الرأسمالي لكراسيهم والحال. إن مسار العالم الثالث الاقتصادي لا يدعو إلى التفاؤل، بل هو الأحرى انحدار نحو كارثة تهدد الإنسانية

بأسرها، إذ انه من غير المعقول أن يتمتع أقل من ٩٪ من سكان الأرض بوضع من الكفاية والرفاه، بينما يموت عشرات ملايين البشر سنوياً من المرض والجوع، ويعاني مليار ونصف المليار من سوء التغذية وانعدام فرص التقدم انعداماً مطلقاً، وتتعرض البشرية لنهب يقضي على فرصها في الحياة (انضمت شعوب الاتحاد السوفييتي السابق بسرعة البرق، خلال سنوات قليلة، إلى هذا الوضع الكارثي. هذا هو وعد الرأسمالية لها هي أيضاً).

أما عن اسهام حركات التحرر والقوى التقدمية في العالم الثالث في بلورة التقدمية في العالم الثالث في بلورة وتطوير ماركسية اليوم، فهو سيكون اسهاماً جدياً ذلك ان انهيار الستالينية كشكل مؤسسي للماركسية سيحتم العودة إلى منابعها الأصلية ذاتها، وكانت الستالينية تدعي انها قد احتوتها في منظومتها وطورتها إلى آفاق لم تبلغها من قبل، وجعلت الاطلاع المباشر عليها وتطويرها أمراً غير ضروري، أن لم يكون ضاراً، من جهة أخرى، فإن انهيار الاشتراكية الستالينية لن يخفف من وطأة الاستغلال والتهميش الغربي الرأسمالي، لشعوب العالم الثالث، بل هو سيزيدها وسيجعلها أكثر همجية ووحشية، وبالتالي فإنه سيجعل الحاجة إلى الحرية والاستقلال والثورة في هذا العالم معادلة للحاجة إلى الحياة والوجود ذاتهما فإذا اضفنا إلى ذلك ان انقسام العالم لم ينته، بل هو يأخذ شكلاً آخر محوره انقسام البلدان الرأسمالية، ذاتها وانقسام العالم إلى شعوب متخمة وشعوب يفنيها الجوع، أدركنا أن أنماطاً من الصراعات الجديدة ستبرز في الحقبة القادمة على الصعيد العالمي، ووجدنا ان العالم الثالث سيكون مدعواً للاسهام في هذه الصراعات والانقسامات الجديدة. دفاعاً عن وجود وحياة شعوبه، التي خرجت من مرحلة الانقسام العالمي إلى رأسمالية واشتراكية خاسرة تجرجر ذيول هزيمتها التاريخية الكبرى، التي تجلت في فشل تنميتها وخاسرة استقلالها وثرواتها، وانفجار التناقضات والخلافات بين نخبها. . الخ، في التطور الآتي اتصور أن شعوب العالم الثالث ستكون مدعوة للدفاع عن وجودها، وهو ما سيتجلى في تقدمها هي ذاتها إلى ساحة الصراع، الأمر الذي سيحتم في تقديري، بروز نخب جديدة من بين

صفوفها، أكثر ثورية ومعرفة والتصاقاً بمصالحها من النخب التي قادتها إلى الآن. ويقيني أن الشوب ستجد دوماً في كتابات ماركس أدوات معرفية وفكرية تعينها على اكتساب الوعي الصحيح بشروط تحررها الإنساني العام، الذي صار معناه تحررها من الرأسمالية النظام الذي سبب للانسانية آلاماً لا توصف، والذي يقودها نحو هلاكها الأكيد.

ان الماركسية هي أعظم ما أنجبه البشر على الصعيد الفكري في مسعاهم لتحرير أنفسهم، وهي ستعينهم دوماً على تفسير العالم وتغييره، وإذا كانت الديماغوجية الرأسمالية تسعى الآن لمساواتها بالستالينية ولدفنها معها، فإن مسعاها لن يلبث أن يغرق في خضم الأزمة التي تعصف بالبلدان الرأسمالية ذاتها وفي العالم بأسره، والتي لن يجد النظام الرأسمالي لها حلاً، لأنه تسبب بتسعين بالمائة منها، على كل، فإن البشرية لن تقلع عن النضال من أجل خلاصها، لمجرد أن أحد أشكال هذا النضال، الشكل الذي كان سائداً في الاتحاد السوفييتي، قد أخفق، ان الإنسانية ستواصل التقدم نحو حريتها، وعندما ستبلغ هدفها أخيراً، فإن هذا لن يحمل اسماً آخر غير اسم: الشيوعية.

محدودية
أية نظرية

محمد كشلي

محدودية أي نظرية

أجرى هذا الحوار الزميل الصحفي الفلسطيني سليمان عبد الله.

* انهيار الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي فيه، بعد الانهيارات التي حصلت في بلدان أوروبا الشرقية الأخرى خلال العامين الماضيين، صدم العديد من حملة الأفكار الاشتراكية في منطقتنا والعالم. ما هي برأيكم الأسباب التي أدت إلى هذا الانهيار؟ وهل كان هذا الانهيار حتمياً؟

** قبل الإجابة على هذا السؤال، أنا اعتبر هذا النوع من الأسئلة بحاجة إلى طريقة في النقاش. نحن كنا دائماً في الفكر السياسي العربي، والفكر اليساري العربي، نناقش المواضيع بأجوبة قاطعة، وكان كل كاتب أو باحث أو مناضل أو حزب يملك الإجابة اليقينية والقاطعة على كل سؤال مطروح.

أقول: إن هذه التجربة في المعسكر الاشتراكي بحاجة إلى أسلوب جديد في الحوار على أساس مفاتيح المسائل ونتائجها. وليس من مهمة أحد الآن، لا حزباً ولا أفراد، ولا بقدرته ان يقول انه استطاع الوصول إلى نتائج حاسمة مع أنه ليس المطلوب الوصول إلى نتائج حاسمة على مستوى النظرية أو على

محمد كشلي، كاتب ومفكر لبناني له العديد من المؤلفات الهامة.

مستوى التطبيق العملي، سواء في السياسة أو في ما يمكن تسميته بنظرية الحزب، التي هي الأساس في مفهوم الثورة، وفي مفهوم التطور التاريخي.

أنا أفضل أن نرفض اسلوب السؤال والجواب في هذه المرحلة لكن إذا حدث ذلك لابد أن نطور النقاش ونفتح مجالات البحث أكثر فأكثر، لذلك لن أعطي الآن اجابات بمعنى الاجابة. لكن سأحاول في «الاجابة» على كل سؤال أن أطرح مفاتيح للمسائل واكتشاف الاشكاليات والثغرات فيها على أي صعيد من الأصعدة، لأن تحديد هذه الثغرات هو الذي يتيح امكانية أفضل للنقاش ومعرفة ما حدث.

بتقديري أنه لا يمكن ارجاع ما حدث إلى الصعيد السياسي المباشر، في فترة العقد الأخير، منذ استلام غرباتشوف الامانة العامة للحزب الشيوعي السوفييتي. هذه يمكن أن توضع فيها مئات الأبحاث، بعض الأبحاث أشارت إلى الكثير من الأسباب التي أدت إلى الانهيار، صراعات وتداخل الوضع الداخلي والسياسة الأميركية.

نحن لا يمكن لنا أن ننخرط الآن في بحث هذه الأسباب، لأنها مسألة تاريخية راهنة لا تربط المسائل بجذورها ومنابعها النظرية والسياسية. على الأقل. فلنفتح باب النقاش في المسألة النظرية، وهذا يقودنا إلى «الفجوة الأولى» من مسألة الاشتراكية. هذا طبعاً على الصعيد النظري، عندما نتبع بعمق تطور الماركسية في مرحلة الثورة البرجوازية الأوروبية نلاحظ أن ماركس انتقل من مرحلة إلى مرحلة بسبب تطور الصراع الطبقي في تلك المرحلة بين البرجوازية والاقطاع من جهة وبين البرجوازية والطبقة العاملة الناشئة من جهة أخرى.

في المرحلة الأولى كانت مرحلة الايديولوجيات كما يتحدث عنها بعض المفكرين الماركسيين يفصلون بين الماركسية الايديولوجية والماركسية العلمية، ماركسية «الايديولوجيا الألمانية» وماركسية «رأس المال». أمام تجربة الطبقة العاملة لم يتبع ماركس إلا بعض الاشارات في موضوع دكتاتورية البروليتاريا. لكن كان جوهر النظرية يقول: إن التناقض بين الطبقة العاملة والبرجوازية

لابد أن يستمر إلى أن تتبع الطبقة العاملة ديمقراطية من نوع جديد تستلم السلطة على صعيد النظام الرأسمالي العالمي، أي أن فكرة التطور ليست فكرة الثورة القسرية. أي أن النظام الرأسمالي العالمي يفرز تناقضاته إلى أن تصل إلى مستوى من النضج تستطيع الطبقة العاملة ان تقيم الاشتراكية والديمقراطية.

أما فكرة ديكتاتورية البروليتاريا لم ترد إلا لماماً وبإشارات خاصة عندما صيغ البيان الشيوعي، في فترة ما بعد كومونة بارس وفي المرحلة الأولى من البرجوازية، والحقيقة أن الذي طور فكرة ديكتاتورية البروليتاريا وحزبها هو لينين:

انتقلنا من مرحلة النضوج إلى مرحلة القسر ومرحلة الارادة في التاريخ، وهي جوهر نظرية ـ لينين ـ وهذا أثار صراعاً حوله، حيث قيل انه غير ممكن اقامة نظام اشتراكي أو ثورة اشتراكية إلا بعد انجاز مرحلة الثورة البرجوازية. بعض الاجتهادات كانت تقول ـ وكلها على كل حال طمست في تاريخ الفكر الاشتراكي ـ ان على الطبقة العاملة وحزبها أن ينجزا مهمات الثورة البرجوازية، وتبدأ الثورة الاشتراكية، هذه الاشكالية أيضاً لم يطرحها أحد، ولم يناقشها أحد. أنا هنا أشير إلى الفجوات حتى نعرف كيف نناقش، إلى أن حسم لينين المسألة في كتابه الخطير الذي يتحدث فيه عن التطور الرأسمالي في روسيا، والذي تشكلت بعده نظرية الحزب الثوري والطليعة. إن الطبقة العاملة بحاجة إلى حلفاء في روسيا. الفلاحون هم الحلفاء تستطيع الطبقة العاملة رغم محدودية وضعها، لأنها لم تكن قد تطورت في روسيا، اقامة حزب يعطي الوعي للطبقة العاملة ويشكل أداة تنظيمية لها، وطرح كذلك ان هذا المؤتمر قائم على المركزية الديمقراطية وتسريع التاريخ بإرادة الطليعة أو الحزب أو التنظيم. أي أن الحزب عندما يتسلم السلطة أو يقوم بالثورة يسرع العملية التاريخية ويقيم الاشتراكية. رغم تردد لينين في الفترة الأخيرة، فإن ستالين ارتكز على هذه القاعدة اللينينية، ارتكز على هذه النظرية، صحيح أن ستالين أخذها إلى نهايتها القصوى. جوهر النظرية اللينينية، ان يستطيع في مرحلة

من المراحل التاريخية أن يسرع التاريخ، ويقيم مرحلة انتقالية بقوة التنظيم وبقوة الثورة، هذا هو جوهر الاشكالية الأولى رغم كونها مسألة ليست بسيطة. إذا لم نرجع إليها لا نفهم المراحل الخطيرة التي نما فيها التطبيق الاشتراكي. وهنا اشارة إلى خطر التحليلات التي تقول: إن التطبيق كان خاطئاً، ليست المسألة في تفاصيل التطبيق وان كانت هناك أخطاء فيه. المسألة لها علاقة بالتاريخ، بمسألة تاريخية: كيف فهمت النظرية؟ وكيف طبقت؟ وعلى أي صعيد طبقت وما هي طبيعة المرحلة؟

أقول ذلك، حتى لا ندخل في غابة الأسباب السياسية. طبعاً هناك مسؤولية وأخطاء تزيد من الصعوبات والثغرات، أخطاء كانت تجري في ظروف معينة، مثل بريجنيف وغيره، وغورباتشوف واصلاحاته أو ستالين طبعاً ليس هذا دفاعاً عن غورباتشوف واصلاحاته أو ستالين. لابد من بحث هذه المسائل خارج إطار الصواب والخطأ بهذا المعنى الحرفي. يجب أن تبحث المرحلة التاريخية بكل ثغراتها وفجواتها!

كلمة الفجوة، هذا أسلوب في التحليل يعطي المسائل والمرحلة التاريخية عقلانيتها أو «لا عقلانيتها» لاننا إذا أخذنا الأمور بهذا المعنى يصبح التاريخ كله خطأ!

إذا أخذت أسلوب الفجوات والهوات مثل جغرافية الأرض، ترى وقتها البراكين وخمود البراكين. هذه الأمور تنطبق أيضاً على الرأسمالية.

هذا هو برأيي الطريق الأسلم للحوار حول أسباب انهيار الاتحاد السوفييتي. كما سنلاحظ، أنا لم أشر إلى رأيي النهائي، ولكن أحاول أن اكتشف أين الفجوات، وهذا يرتبط بالمقدمة. ثانياً، لم أعدد أي سبب سياسي للانهيار، وليس معنى هذا انه لا توجد أسباب سياسية، ولكن ليس هذا للبحث. على أي حال، هناك ما يمكن تسميته بالماركسية، كما انتقلت إلى العالم الثالث عموماً، أو حركات التحرر الوطني. ونتذكر النقاش الذي دار حول الماركسية والشرق. مما لاشك فيه أن الماركسية عندما تمركزت في الاتحاد السوفييتي، بعد قيام ثورة أكتوبر، انتشرت كما قدمها الحزب الشيوعي

السوفييتي، أو كما قدمها ستالين، انتشرت بما وصل إليه لينين في أقصى حدة التغيير بالقوة. سواء بواسطة الحزب أو بواسطة الثورة. ستالين مثل ارتكازاً لنظرية لينين، وما حملته هذه النظرية على صعيد التطبيق الاشتراكي، وحملت ستالين كل هذا الأرث ووزعته في العالم. حتى الثورة الصينية استمدت منه، لكن بخصوصياتها وهذا ما أصاب الماركسية في الصميم، وكان السبب في أزمتها الحقيقية، أي عدم قدرتها على التطور واكتشاف مراحل تاريخية جديدة قصرت تاريخها على مرحلة معينة، واعتبار الاشتراكية نظاماً يجب أن يسود العالم.

على أي حال، الخلاصة التي أريد أن أركز عليها، أولاً: يجب أن نحدد ثلاثة أشياء للبحث، لأي بحث، الحد الأول هو أن النقاش يجب أن يصل إلى مستوى التاريخ وليس إلى مستوى السياسة. الحد الثاني يجب أن يعترف بمحدودية أي نظرية، ولو بمستوى النظرية الماركسية، النظرية محدودة ونسبية في الزمان والمكان كأي شيء في التاريخ.

الحد الثالث: دائماً في التاريخ هناك شيء اسمه التوسط بين الفكرة والواقع، هو التنظيم أو الحزب. كم تجربة قامت في العصر الحديث على هذا التوسط، وهو النظرية اللينينية في الحزب. هذه أيضاً بحاجة إلى مراجعة، وليست المراجعة على أساس الاستخلاصات التي خرجت بها بعض النظريات في أوروبا حيث تبنى البعض موت فكرة الحزبية. وليست في التبني الكامل لما نتج عام ١٩١٧ على يد لينين. لا هذا ولا تلك، وليس المقصود الخروج بحل وسط أو توفيقية، إنما نقول أن هذه اشكالية موجودة تطرح علينا الآن نوعاً جديداً من النقاش حول مسائل الديمقراطية والحزب ومسألة الديمقراطية والتنظيم في مرحلة ما بعد انهيار الاشتراكية.

* الغرب الليبرالي اعتبر هذه الأحداث انتصاراً للرأسمالية والليبرالية تعززه النجاحات الاقتصادية للرأسمالية، والتنامي المتواصل للقوى المنتجة فيها، مستفيدة من الاكتشافات العلمية ـ التقنية. كيف يمكن تفسير استمرار تنامي القوى المنتجة في البلدان الرأسمالية المتطورة، رغم التناقضات

والأزمات الدورية، في وقت تعثر فيه هذا التنامي في بلدان النموذج السوفييتي، الذي كان يوصف بإنه اشتراكي؟

** دول النظام الرأسمالي العالمي تعتبر أن الاشتراكية انهارت أو أفلست والرأسمالية انتصرت هذا شيء طبيعي ضمن السباق السياسي وقد يكون الايديولوجي الأميركي من أصل ياباني فوكوياما أكثر من عبر عنها حين اعتبر أن التاريخ وصل إلى نهايته، مثل جنة كاليفورنيا، وكاليفورنيا معرضة لأزمات خطيرة. نهاية التاريخ محاولة ايديولوجية فوق الواقع بأكثرها من مجردات حول الاقتصاد وغيره، لكن أخطر ما في هذه النظرية انها تعتبر التاريخ مجرد فكرة. نهاية التاريخ بهذا المعنى قمة الأدلجة الغربية. لكن عندما نبحث في النظام الرأسمالي العالمي، نجد الأمور على صعيد الواقع بكل تناقضاتها ومشاكلها. الآن ليس لدي دراسة نهائية عن الرأسمالية، لكن على ما يبدو أهم ما يحدث الآن في أميركا هو الركود الاقتصادي الذي يتمثل بعدم القدرة على التطور التكنولوجي. الذي وصل إلى ذروته، إلى نهايته، حتى اليابانيون يعانون من هذا، وصول التطور التكنولوجي إلى ذروته أمام التناقض بين القوى المنتجة وأساليب الانتاج. أخطر ما يحدث الآن في أميركا على هذا الصعيد والذي يتبلور، هو أن المجمع الصناعي العسكري الأميركي الذي كان يقود عملية التقدم التكنولوجي قد وصل بهذا التقدم إلى نهايته المحتومة. نلاحظ أن هذا هو التناقض بين اليابان وألمانيا والولايات المتحدة على أي حال. ليست هذه نهاية التاريخ ولا انتصار نظام على نظام، لأن لكل مرحلة تاريخية فجواتها، وأهم فجوة في النظام الرأسمالي هي التناقض في نظرية القطب الواحد والمشاكل الاقتصادية. التاريخ على أي حال ليس سنة أو عقداً، هذا ليس تحدياً لأي كلام آخر. التاريخ هو رحلة تمر بكل المراحل.

الماركسية قالت في الفترة التي نشأت فيها أن التناقضات في الرأسمالية سوف تستهلكها. بتقديري هذه مسائل مرت في مراحل مختلفة. لكن بعد الآن نحن أمام هذه النهاية. ماذا يمكن القول عن تطور الرأسمالية في هذه المرحلة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي؟ على الصعيد السياسي، وعلى الصعيد

الاقتصادي وعلى صعيد الليبرالية الاقتصادية والسياسية نفسها، يمكن أن تتجسد سياسياً في نظرية القطب الواحد. حتى المؤتمر الأخير الذي عقد في البرازيل حول موضوعات الأرض والبيئة، قال عنه العديد من المحللين إن أميركا وجدت نفسها انها ليست القطب الواحد، وان الرأسمالية عموماً تعاني من مشاكل وتناقضات ستؤثر على المرحلة القادمة، وبدأت ملامحها تتضح في أوروبا مثلاً ما يحدث في يوغوسلافيا، الدخول الفرنسي على خط أزمتها، على أي حال، إذا عدنا للمسألة النظرية، فانهيار الاتحاد السوفييتي، انتصار للرأسمالية على الصعيد السياسي. أما على الصعيد الأعمق فهو قدرتها على استنباط أوضاع جديدة للنظام العالمي، لذلك أميركا تبحث عن عدو جديد. فوكوياما أشار إلى هذه المسألة وقال: ان التحدي التاريخي يفرض على الولايات المتحدة أن تبحث عن عدو جديد، وهذا العدو وجدته في حرب الخليج، لكن الآن في أحداث لوس انجلس اكتشفت ان العدو يمكن أن يكون في الداخل. هذه النظرية تبحث الآن في أميركا على أبواب الانتخابات الأمريكية، والتي ستظهر فيها حقيقة الأزمة أمام الثنائي القائم بين الحزبين الجمهوري والديمقراطي، حيث يظهر هذا التيار الرأسمالي الذي يحاول أن ينهي هذه الثنائية. لكن هذه الثنائية ليست على المستوى السياسي فقط، ولكن لها تعبيراتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في المجتمع الأميركي.

على أي حال. أنا أعتبر انه في المرحلة القادمة، ستمر الرأسمالية بمرحلة جديدة ستبرز فيها الكثير من الصراعات والأزمات السياسية والاقتصادية والعسكرية.

لا أقول هذا من قبيل التغطية على اشكالات الاشتراكية، وإنما لتأكيد مسائل تتعلق بكيف يمكن أن نراجع النظرية بشكل صحيح، وأن نكتشف ليس الثغرات وانما الفجوات بشكل صحيح أيضاً وعلى كل الصعد لتحليل الأوضاع المحلية والعالمية بعقلانية وبدراسة علمية. لكن لكل ذلك متطلبات، أشك أن يكون الفكر السياسي العربي، والأحزاب والقوى أن تكون لديها المقدرة على طرح هذه المسائل والحوار حولها. لكن لابد من أن

نفتح باستمرار هذه القضايا ونتواضع كثيراً قبل أن نصل إلى نتيجة على الصعيد النظري والسياسي.

* هل يمكن القول مع بعض المدارس الفكرية ان الاشتراكية لا يمكن أن تبنى إلا في بلدان بالغة التطور الرأسمالي، وان حرق المرحلة كما حدث في الاتحاد السوفييتي والنزعات الارادوية التي دفعت بهذا الاتجاه لا يمكن أن تغني عن ضرورة انضاج التطور الرأسمالي؟

** الكلام الذي قلته عن حرق المراحل صحيح، ثبت انه غير ممكن لكن النتيجة النهائية للمسألة ليست كما يدعي هذا القول. على أي حال، نحن الآن في مرحلة اعادة النظر في كثير من الأمور. الآن في النظام الرأسمالي العالمي اتجاهات كثيرة تحاول أن تبحث في موضوع التوازن بين ما يسمى حرية السوق والعدالة الاجتماعية. هناك اتجاهات تستمد من الاشتراكية الإنسانية والديمقراطية التي سادت في بعض مراحلها، كما يحدث الآن في روسيا، في هذا المخاض الرهيب الذي تعاني منه البلاد من الانحطاط الاقتصادي، وعدم القدرة على التكيف والفساد والرشاوي والمافيات.

حتى الآن، لا نستطيع القول إن نموذجاً اشتراكياً انتصر ونموذجاً اشتراكياً آخر فشل، أصلاً فكرة النموذج خاطئة. في بعض البلدان التي لازالت اشتراكية مثل كوبا وغيرها، هذه التجارب صمدت لأسباب عدة، كوبا لم تنهزم مثلاً. قد يكون نمط القيادة والتعبئة لعب دوراً في بقائها، ليس بالإمكان القول أن النموذج الكوبي يمكن أن ينتصر في بلد آخر. لذلك ليست هناك دلالة نهائية ولا دلالة مطلقة.

أهمية الفكر السياسي انه من خلال هذا المنهج، يستطيع أن يتعرف على الواقع الحقيقي ويولد من خلاله ايديولوجية التغيير، والمراحل والأساليب المناسبة على الصعيد الديمقراطي، حتى الديمقراطية ليست نموذجاً أيضاً، في البلدان المتخلفة تستغل السياسة الغربية والأميركية بشكل خاص مسألة الديمقراطية لنشر ديمقراطية من نمط خاص، تؤدي إلى نتائج معينة تثبت أحياناً

وتخبو أحياناً أخرى بما يتناسب مع المصالح الأميركية. أما التحديد فهو دائماً يصل إلى المرض النهائي الذي هو الإطلاقية وتحديد الأمور بالنموذج.

* ماذا عن العالم الثالث؟ هل أصبح مهمشاً وتحول الجدار الحديدي ـ كما يقولون ـ بين الشمال والجنوب بدلاً من الشرق والغرب؟

** العالم الثالث بكل تنوعاته ومشاكله يعاني من مسألة أساسية، هذه الهوة الحضارية والصناعية الرهيبة بينه وبين الغرب، وبينه وبين النظام الرأسمالي العالمي. بعض التحليلات تطرح عليه مهمات تاريخية، تكرارها أصبح نوعاً من التخدير الجديد. نشير هناك بشكل خاص إلى نظريات سمير أمين، والتي يقول فيها أن السوق الرأسمالي العالمي هو الذي أنشأ تكتلات في العالم الثالث، تخضع للعلاقة معه. هذا القطع أصبح بالاستحالة بسبب ان أي بلد في العالم الثالث لا يملك القدرة على التطور الصناعي، إلى نفس المستوى الذي وصل إليه التطور التكنولوجي الصيني مثلاً. إذن ما الحل؟ الطريق مسدود. طرح الأوهام من خلال المهمات على العالم الثالث على انه السوق الرأسمالي العالمي، وانه يمكن قطع هذه العلاقة بسحر ساحر، هذا مستحيل. أشرت إلى هذه المسألة مرة خلال حديثي مع الدكتور سمير أمين في احدى المناقشات، قلت له: تصور في احد البلاد العربية المتخلفة اليمن مثلاً، محطة في أحد الجبال الجرداء بين مدينة وقرية فيها كشك يبيع المرطبات، وهذا الكشك فيه تلفزيون ياباني أو ألماني وبراد مصنوع في بلد اشتراكي. أنا أثارتني هذه المسألة قلت كيف يمكن لبلد في العالم الثالث أن ينتج ما وصل إليه اليابانيون والغرب. هذا مستحيل. كيف يمكن منعه من استهلاك هذه البضاعة؟ وكيف ينتجها؟ نصل إلى معادلة شبه مستحيلة. وهذه احدى المشاكل التي عاشتها التجربة التقدمية، الناصرية مثلاً، بين التصنيع والاستهلاك نفذت البيروقراطية التي أصيبت بالتخمة والفساد، وانهارت التجارب بفعل ذلك...

كيف يمكن ايجاد فكر سياسي مناسب، وتطوير الفكر السياسي العربي

ليطرح بواقعية وعقلانية هذه المسألة يطرحها في نفس الوقت في تعبئة شعبية للناس ضد الغرب، وضد سيطرته وهيمنته.

معادلات أصبحت بحاجة إلى ايجاد نقطة محددة للعمل السياسي التغييري في بلدان العالم الثالث، وخاصة البلدان العربية.

على أي حال، أصبحت أميل إلى أن هذه المغامرات في القطع والوصل، بين التبعية والقطع الثوري وصلت إلى فشل نهائي، والفكر السياسي أصبحت ثوريته تنتج عن واقعيته الحقيقية وعن قدرته على فتح أبواب جديدة على المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية، بكل ما تحمله الكلمة من تنوع، أن نعادي الرأسمالية بشكل صحيح.

تطوير
النظرية

تطوير النظرية

أجرى هذا الحوار الزميل الصحفي الفلسطيني سليمان عبد الله.

* انهيار الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي فيه، بعد الانهيارات التي حصلت في بلدان أوروبا الشرقية الأخرى خلال العامين الماضيين، صدم العديد من حملة الأفكار الاشتراكية في منطقتنا والعالم. ماهي برأيكم الأسباب التي أدت إلى هذا الانهيار؟ وهل كان هذا الانهيار حتمياً؟

** الواقع ان انهيار الاتحاد السوفييتي و«البلدان الاشتراكية» في أوروبا الشرقية صدم جميع الاشتراكيين في منطقتنا والعالم كله، ولم يصدم فقط ـ كما جاء في السؤال ـ العديد أو الكثير من حملة هذه الأفكار، أقول هذا مع التحفظ الكبير والمبرر، لأن أحداً، سواء في الدول الرأسمالية أم في البلدان «الاشتراكية» لم يكن يتوقع هذا الانهيار، برغم أن الكثيرين ـ ومنهم نحن على مدى سنوات طويلة ـ توقعوا بعض التراجعات حتى بروز قيادات اشتراكية أصيلة وسليمة تضع قطار الاشتراكية على خطه السليم الواقعي لا الذاتي ولا المزاجي الستاليني أو المتأثر به، ومعروف أن لينين انتقد ستالين في ما يسمى

نسيب نمر، مناضل ومثقف لبناني.

بـ «وصية لينين»، فوصفه بالفظ والإنسان المزاجي.

كنا، نحن المنتقدين في أكثر من بلد «اشتراكي» وغير «اشتراكي» مقتنعين بأن أكثر العيوب والنواقص ناجمة عن تطبيق الاشتراكية في الأساس وليس من مبادئها ذاتها، إلا قلة منا رأت، وهي ترى الآن، أن ثمة نقصاً أساسياً في علم الاقتصاد السياسي الاشتراكي ساعد على الانهيار، وهو ما بحثناه في بعض مؤلفاتنا الصادرة بين ١٩٦٥ و١٩٧١ وسبق أن طرحناه في أوائل الستينيات في موسكو ضمن حلقات ايديولوجية متخصصة، ويطلق على هذا النقص مفهوم «الحافز ـ أو الحوافز ـ المادية لزيادة الانتاجية»، حيث انطلقنا منه للقول إن الايديولوجية الاشتراكية ـ ما دامت خالية من الحافز المادي الايجابي لزيادة الانتاجية ومستندة إلى الحافز المعنوي القصير النفس وإلى البيروقراطية والقمع والحوافز السلبية من حرمانات وغيرها ـ معرضة للانتكاسات الخطيرة أو لعدم التطور السليم.

ولكن لم يبلغ بأحدنا التفكير إلى حد توقع الانهيار كما حصل، ولاسيما أن جميع ايديولوجي الاشتراكية جميعهم دونما استثناء، كانوا مقتنعين، نتيجة الدعايات وربما نتيجة عوامل انفعالية وذاتية، بأن الاشتراكية لن تنهار كلياً حيث نشأت. وإذا حدث تراجع أو ضعف ما في بلد «اشتراكي» فإن الاتحاد السوفييتي أقواها وأكثرها تطوراً سيحول دونه ويعالجه، أما أن ينهار الاتحاد السوفييتي نفسه، فهذا ما لم يكن يتوقعه أحد، لا في العالم الرأسمالي ولا في العالم الاشتراكي ولا في العالم المحايد. واعتقد أن انهيار احدى القوتين العظميين ـ والقوة الثانية بدأت ولو بخجل وخفر الطريق نفسه، طال أم قصر ـ كان مفاجأة غير متوقعة مثلما يفاجأ المرء برؤية خرافة أو اسطورة تتحقق عملياً وفي الواقع.

ذهبت تولياتي، زعيم الحزب الشيوعي الايطالي في منتصف الستينات، وازاء ما أظهره خروتشوف من عيوب النظام السوفييتي منذ عهد ستالين، إلى القول إن ما يعانيه الاتحاد السوفييتي ليس سببه فقط تصرفات شخصية بل إن ثمة شيئاً ما في النظام نفسه يؤدي إلى ذلك أيضاً. وعندما قمنا بطبع ما يسمى

«وصية تولياتي» ونشرها وطلبنا دراستها بإمعان في صفوف الشيوعيين العرب، هبت علينا موجة انتقاد عنيفة واتهمنا بالتحريفية والارتداد وما إلى ذلك من نعوت برع فيها هؤلاء الذين برعوا في نقل البندقية من كتف إلى كتف بسرعة لا تصدق. أو بتغيير القلاع لتناسب كل ريح وحتى الريح التجارية والوصولية، وما زالوا يتابعون مسيرتهم وكأنما شيء لم يحدث بل كأنما لا جديد تحت الشمس، وكانت النتيجة، هنا وفي كل مكان تقريباً، استقالة الاشتراكيين الأصيلين من التنظيمات القائمة أو طردهم وفصلهم مع مزيد من الستالينية بدون ستالين طبقت بحقهم حتى تحولت التنظيمات الاشتراكية، والتقدمية عموماً، إلى ما يشبه المأوى الذي يضم المستسلمين والوصوليين والجامدين والمنتفعين باستثناء فئة نرجو أن تتمكن من فرض خط سيرها الأكثر سلامة وامانة بعد هذه التجارب المأساوية عندنا وفي العالم لانقاذ ما يمكن انقاذه من مثل وأخلاق اشتراكية هي ضرورية لترسيخ الحضارة وتطويرها.

وإذا شئنا دراسة أسباب هذا الانهيار التاريخي بكاملها لضاق بنا المجال واحتجنا إلى مؤلفات كثيرة هي بحجم الانتقادات التي وجهها الاشتراكيون الأصيلون نظرياً وعملياً، ودفعوا الثمن ملايين الضحايا والشهداء بفعل الستالينيين في كل مكان، وفي بلادنا أيضاً. حيث ما يزال الكثيرون من ورثتهم يتسلمون مقدرات التنظيمات الاشتراكية ويتحدثون باسمها ضد الستالينية، فيما كانوا يتحدثون باسمها ويمجدون الستالينية في السابق، بل انهم كثيراً ما تاجروا ويتاجرون باسم الاشتراكية حتى تحوّل قادة بارزون عديدون منهم إلى راسماليين الآن في الاتحاد السوفييتي السابق وبلدان أوروبا الشرقية وغيرها، وغيرها، قادة يشرفون بأمانة على اجتثاث كل أثر اشتراكي، في الأنظمة والتنظيمات، ويعملون على توطيد الرأسمالية ـ أو الرأسمالية الاحتكارية ـ عبر ما يسمى «اقتصاد السوق» المتحول في الامبريالية من مرحلة المزاحمة الحرة إلى المرحلة الاحتكارية.

إلا أن ذلك لا يمنعنا من التمحور حول الأسباب الرئيسية للانهيار، وهي موضوعية وذاتية معاً. فالموضوعية أخذ الاشتراكية العلمية في صورة دوغماتية

جامدة وعدم تطويرها عما وضعها ماركس وانغلز ولينين وغيرهم. وهم قالوا، صراحة وبوضوح، ان ما وضعوه ليس نهائياً ولا مغلقاً، بل هو فقط مرشد للعمل، وتالياً عدم تغيير أسس فيها لتتفق مع الأوضاع المتغيرة ولتلبي الحافز المادي ـ أو الحوافز المادية ـ لزيادة الانتاجية طوال المرحلة الانتقالية من المرحلة الدنيا للشيوعية (أي الاشتراكية) إلى المرحلة العليا، أو من شعار: من كل حسب عمله ولكل أجره، إلى شعار: من كل حسب قدرته ولكل حاجته، إلى جانب أسباب أخرى ساهمت في جعل الاشتراكية العلمية ديناً أو ما يشبه الدين.

أما الأسباب الذاتية فتحويل الاشتراكية من الديمقراطية الإنسانية أو ديكتاتورية الأكثرية الشعبية إلى الدكتاتورية الفردية أو النخبوية، وهذا ما حوّل القيادات الشيوعية والاشتراكية، باستثناء أفراد، إلى عصابات جلادين وقتلة للعمال والبروليتاريين، بدل أن تكون ذات وجه انساني، كما هي عليه المبادىء والايديولوجيات التي يزعمون انهم يمثلونها ويتحدثون باسمها، مانعين سواهم وبأساليب شريرة معروفة حتى من الانتماء إليها وحق الحديث عنها.

فوجود مثل هذا الخلل الايديولوجي والتنظيمي يمهد الطريق لدخول «حصان طروادة» وتخريب البناء الضعيف للأسباب المذكورة آنفاً من الداخل. وهذا ما حصل، حيث كان غرباتشوف وأمثاله، وباتفاق تام مع الامبريالية واليهودية العالمية «أحصنة طروادة» وقد قاموا بأدوارهم تماماً، وسلموا بلدانهم إلى قادة الامبريالية واليهودية العالمية لإقامة «اقتصاد السوق» فيها واخضاعها إلى «النظام العالمي الجديد» ونالوا لقاء ذلك الأثمان البخسة. وقد صدق ظننا عندما قلنا يوم كان غرباتشوف في السلطة انه ليس أكثر من حصان طروادة الممهد ليلتسين.

ويقيني ان الانهيار الحاصل كان طبيعياً ان لم يكن حتمياً للأسباب الموضوعية والذاتية الكثيرة التي عالجنا معظمها في سلسلة مؤلفات لنا (بين ١٩٦٥ و١٩٧٢) وسلسلة بحوث لما تنقطع منذ ذلك الوقت. ومن هذه

المؤلفات: تطور الديالكتيك، وفلسفة الحركة الوطنية التحررية، وبين موسكو وبكين، وصراع الفلسفة المثالية والمادية عبر التاريخ، والمادية الجدلية وغيرها وغيرها. وفيها جميعاً طرحنا آراء عدة في الايديولوجية والتنظيم وتطوير الاشتراكية، يردد البعض اليوم وبعد حوالي ٣٠ سنة، كثيراً منها تغطية لمواقفه التبعية والذيلية السابقة وتبريراً لاستمراره في الرقص على الحبال كمهرج نيتشه، ولم يكتف أصحاب «أحصنة طروادة» في الخارج والأحصنة غير الكريمة، ذاتها في الداخل بضرب ما سمي بالاشتراكية أنظمة وتنظيمات، وفيها رغم سلبياتها العديدة بعض الايجابيات بالنسبة إلى الضمانات الاجتماعية والصحية والتعليمية وإلى توفير حد كاف للمواد الضرورية، حتى أثر هذا الخط في الأنظمة الرأسمالية وحملها على اتخاذ ضمانات مماثلة أو شبيهة بها..

نقول، لم يكتف هؤلاء بالقضاء على كل هذا، بل قضوا، فوق ذلك، على الوحدة السياسية لكل بلد، واغرقوه في حروب أهلية مزقت وتمزق أوصاله، وقسمت وتقسم شعوبه إلى مقاطعات قومية متصارعة، وهذا المخطط التقسيمي ليس خاصاً ببلدان كانت تسمى اشتراكية، بل هو عام وعالمي يقوده أباطرة «النظام الجديد» في الولايات المتحدة لتخريب كل بلد، كبيراً كان أو صغيراً، بهدف توطيد الأمبراطورية الأميركية على أساس «فرق تسد»، وبهدف الاستمرار في امتصاص ثروات شعوب الأرض ودمائها والايغال في ذلك. ولا ندري متى ستبدأ الامبراطورية الأميركية تحصد ما تزرعه اليوم لسواها. فكل هذا مرتبط، إلى حد كبير ومؤثر، بإرادة اليهودية العالمية التي اسمى ماركس دينها في «المسألة اليهودية» بأنه دين الربا والاتجار وما إلى ذلك، ونادى بخلاص اليهودي عن طريق خلاصه من دينه.

ولابد من القول هنا ان البناء الداخلي القوي يرد الهجمات الخارجية، مهما كانت شرسة ومنظمة وطويلة النفس وفائقة القدرة. ولو كانت أبنية الاتحاد السوفييتي وبلدان أوروبا الشرقية، قوية داخلياً لعجزت أحصنة طروادة وأصحابها عن احداث ما أحدثوه. وهنا تكمن المسؤولية الايديولوجية والعملية الكبرى لقادة هذه البلدان في عملية انهيار هذا النموذج أو الطراز

غير الكامل من الاشتراكية، وكان دور هؤلاء القادة عن قصد بالنسبة إلى البعض وغير قصد بالإضافة إلى البعض الآخر، مشابهاً لدور الطبيب الدجال الذي يعهد إليه بمعالجة المريض فيشفيه عن طريق القتل بالسموم بدل معالجته بالعقاقير الناجعة.

لقد قضوا على النموذج الاشتراكي بقتله، بدلاً من انقاذه عن طريق الاصلاح والعلاج المفيد. فليتحملوا نتائج جريمتهم الكبرى هذه أمام التاريخ المتحرك دوماً وأبداً، حيث يصح لنا القول إن الشروط الذاتية التي كانت وراء انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ كانت هي أيضاً وراء انهيار النموذج الاشتراكي السوفييتي عام ١٩٩١ ، وذلك بعد توافر الحد الأدنى من الظروف الموضوعية في كلتا الحالتين، كما يعلمنا الديالكتيك. وهكذا انتقلنا من تجربة رائدة للاشتراكي العظيم لينين ورفاقه إلى جريمة شبه قاتلة نفذها المرتد الأعظم غرباتشوف وأنصاره والمشرفون على أدوراهم في الداخل والخارج معاً.

* ماذا يعني هذا الانهيار بالنسبة للنظرية «الاشتراكية العلمية» أي الماركسية؟ وما الذي يمكن استخلاصه بالنسبة لمستقبل هذه النظرية؟

** اعتقد أن الجواب عن هذا السؤال، لا يحتاج إلى عناء كبير أو إطالة، وأنما هو يتطلب البساطة المفرطة مثلما هي الحقيقة ذاتها. وذلك إن كل تراجع أو مراوحة ـ والمراوحة تراجع ـ يتطلب وقفة تأمل فتفسير، فسعياً إلى التغيير، وإلا فما معنى الايديولوجية وما معنى الفلسفة؟ وهذه العملية التي كانت ضرورية قبل الانهيار ما تزال ضرورية، وبصورة أشد، بعد حدوث الانهيار، بحيث تشمل تطوير النظرية، ولاسيما في علم الاقتصاد السياسي، الاشتراكي العلمية أو الماركسية، وتطوير الممارسة ومفهوم التنظيمات المكلفة بقيادة الممارسة والإشراف عليها، إذ دلت التجارب في جميع البلدان الاشتراكية السابقة والبلدان الاشتراكية المستمرة في الحياة اليوم، وسط صعوبات جمة وأمام وضع عالمي ليس في مصلحتها، على أنه ينبغي احداث تغييرات ايديولوجية

ضرورية وهامشية في المبادىء الاشتراكية العلمية وفي مفهوم أحزابها، وذلك في اتجاه اشتراكية علمية انسانية وديمقراطية كما هي حقيقة الماركسية العامة، وإلا كان الاشتراكيون كالمسيحيين والمسلمين واتباع سائر الأديان يحملون اسم أديانهم ولا ينفذون منها سوى طقوسها الشكلية، ولو كانت الاشتراكية العلمية ديناً ذا مبادىء وتعاليم مغلقة ونهائية لحكمنا عليها بمصير يشبه مصائر الأديان الوثنية والايمانية معاً. إلا أنها مبادىء انسانية متحركة ومبادئها مرشدة للعمل فقط. وهذا ما يجعلنا نثق بأن مستقبلها، وفق ما سيحدث فيها من تغيير نظري وتبعاً لما يستخلص من دورس عملية، سيكون أداة لتطوير الحضارة البشرية، مادياً وروحياً، إلى الأفضل، إذ ليس ثمة أداة سواها قادرة على احداث التطور، شرط تطويرها مع «الأشياء في ذاتها» لتحويل هذه الأشياء من وجود في الذات فقط إلى وجود لذاتنا ومن أجلنا. فقد خلق السبت لأجل الإنسان وليس الإنسان لأجل السبت، ومن (أو ما) لا يعطي ثمراً جيداً يقطع ويرمى في النار.

وبكلمة: إذا سلمنا بأن الحضارة الإنسانية تتطور إلى الأمام، في صورة عامة، وبرغم تراجعات ومراوحة في الخاص وفق مفهومنا للتطور، وإذا قبلنا بنظرية التطور الحلزوني أو الرفاهي أو السبيرالي الواقعية العلمية بدلاً من النظرية الهيغلية ـ مثلاً ـ القائلة بالحركة الصاعدة أبداً والمتقدمة دوماً حتى الانتهاء إلى المحطة الأخيرة، مع انه ـ جدلياً ـ ليست ثمة محطة أخيرة لعملية التطور والمعرفة ولكل شيء بإطلاق، وإذا وافقنا على ان ليس ثمة حقيقة مجردة بل الحقيقة ملموسة وتقريبية أبداً، ومن كل هذا صغنا نظريتنا الفلسفية المعروفة بـ «الحقيقة الحقيقية» وهي دخلت عدداً من الموسوعات العالمية وكرست فيها، أدركنا تماماً العلاقة الجدلية الواقعية بين الفكرة عن «الشيء في ذاته» وهذا الشيء الموضوعي ذاته، وصرنا مضطرين إلى اعتناق نظرية أعمى المعرة باننا كلما أجزنا مدى (منها) رأينا مدى، ونظرية هيغل في أن ما هو عقلاني واقعي وما هو واقعي عقلاني، ونظرية الماركسيين الأصليين في أن الاشتراكية العلمية تأخذ أشكالاً مختلفة عند كل اكتشاف أو تقدم علمي

وفكري جديد واعتناق كل نظرية مماثلة إلى هذا الحد وذاك.

وهذا مبرر، كما نعتقد، إلى تقوية آمالنا، بأن الحضارة لا بد منتهية إلى الأفضل، وأن وصولها إلى نوع من الاشتراكية الإنسانية والديمقراطية أمر لا مناص منه، أو عادت البشرية إلى ما يشبه مرحلتها الحيوانية، إذا لم يقض على هذا الكوكب الأرضي بفعل الأسلحة الاستراتيجية التي تقوى فاعليتها أكثر فأكثر، أو إذا لم يقض على سلامة البيئة مما يؤدي إلى القضاء على الحياة أو في الأقل على الكائنا العضوية المتطورة والمهيأة للتطور المعرفي، ونقصد الإنسان ذاته.

* الغرب الليبرالي اعتبر هذه الأحداث انتصاراً للرأسمالية والليبرالية، تعززه النجاحات الاقتصادية للبلدان الرأسمالية المتقدمة والتنامي المتواصل للقوى المنتجة فيها مستفيدة من الاكتشافات العلمية ـ التقنية. كيف يمكن تفسير استمرار تنامي القوى المنتجة في البلدان الرأسمالية المتطورة. بالرغم من التناقضات والأزمات الدورية، في وقت تعثر فيه هذا التنامي في بلدان النموذج السوفييتي. الذي كان يوصف بأنه اشتراكي؟ ألا يبدو ذلك مفارقة، إذا تذكرنا المقولة الماركسية الشهيرة بشأن تنامي التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في المجتمعات الطبقية؟

** إذا سلمنا بأن ما حدث يعتبر انتصاراً للرأسمالية، فإنه لا ريب انتصار نسبي ومؤقت وهامشي، ذلك لأن ضعف الرأسمالية وتهافتها موجودان في ماهيتها ذاتها وفي تناقضاتها نفسها، ولا سيما بين الصفة الاجتماعية للانتاج والصفة الفردية لملكية وسائل الانتاج وما سيهيء للقضاء على الرأسمالية هو تناقضاتها الداخلية. أما العوامل الخارجية ـ مثلاً وجود بعض بلدان اشتراكية إلى حدود ـ فعامل مساعد في الاسراع بعملية زوال الرأسمالية. فكما أن تطور مجمل القوى المنتجة والانتاج البضاعي قضى على مرحلة الرأسمالية الحرة وجاء بمرحلة الرأسمالية الاحتكارية ـ النقيض سبب لنشوء نقيضه ونفيه أيضاً ـ فإن هذا التطور نفسه سيقضي على الغرب الاحتكاري وليس الليبرالي كما جاء في السؤال النظام العالمي الآن احتكاري في حقيقته الحقيقية، وليس ليبرالياً مع

وجود عناصر ليبرالية ظاهرة. وإذا أخذناه كلاً. وعلى نطاقه العالمي ـ وهذا ما حققته الامبريالية عملياً ـ نفيت مقولة التنامي المتواصل للقوى المنتجة في الرأسمالية. هذا التنامي يوجد فقط في بعض حلقات متقدمة من السلسلة العالمية، وهو يتم على حساب الحلقات الأضعف من هذه السلسلة، مما يعني أن النظام الرأسمالي الاحتكاري العالمي لا يعاني فقط أزمات دورية، بل هو ايضاً في أزمة عامة تقوى وتضعف تبعاً لعوامل موضوعية ترتبط بالانتاج والاستهلاك، وبشروط ذاتية تتعلق بسلوكية تراكم الرأسمال الاحتكاري ونشاطه عند دول معينة وعند مالكي وسائل الانتاج من شركات وتروستات واحتكارات وأفراد في هذه الدول وفي بلدان تابعة، مما يؤدي إلى تقوية الافقار أو الاملاق المطلق والنسبي في كل مكان، حتى في البلدان الغنية نفسها.

وإذا راجع الباحثون الاحصاءات العالمية لمنظمة الأمم المتحدة، وهي لمصلحة التفاؤل أكبر مما هي لمصلحة التشاؤم، اتضح لهم ان عدد الفقراء والمعدمين والمعوزين والمشردين يزداد باستمرار، حتى في الدول الغنية ذاتها، كما أن عدد موتى الجوع والأوبئة والأمراض الناجمة عن قلة الغذاء أو سوئه في تكاثر، ونسبة متوسط حياة الإنسان ـ عالمياً ـ في انخفاض وتراجع، لهذه الأسباب ولاشتداد وتائر العمل في الدول المتطورة. فكيف يمكن القول أن ثمة نجاحات للرأسمالية وللقوى المنتجة في ظلها؟ إلا إذا تذكرنا قول برنارد شو عندما سئل عن الرأسمالية فأجاب ساخراً: الرأسمالية مثل رأس (غزارة) في الانتاج وسوء في التوزيع)، وكان شو أصلع وذا لحية طويلة كثة تغطي صدره.

ولنترك هذا كل إلى محبي الاحصاءات ولنسأل: إذا كانت الاحتكارات، دولياً وداخلياً، تقوى باستمرار، ويزداد لديها تراكم الرأسمال وتوظيفاته المولدة للقيمة الزائدة الاحتكارية والعادية معاً، أفليس هذا دليلاً كافياً وعاماً وأساسياً على أن عدد المحرومين والمستثمرين في ازدياد؟ ما هي أسباب تولّد هذه الظاهرة التي تمتاز بازدياد الشقة اتساعاً وعمقاً بين الأغنياء والفقراء، والرأسماليين والمحرومين، أهي الآلهة، توحيدية أو وثنية، أم هو القدر بخيره

وشره؟ ألم يقل الإمام الفيلسوف علي بن أبي طالب ما رأيت مالاً مجموعاً إلا وبجانبه حق سليب، وما أتخم غني إلا بما جاع به فقير؟ وهذا القول تشخيص رائع وواقعي لمفهوم القيمة الزائدة عند ماركس. فإذا كان المال المجموع يتراكم ويتكاثر في جهة، والتخمة تكبر وتنتشر في الجهة ذاتها، ألا يعني هذا أن الحقوق السليبة والمجاعة في الجهة المقابلة تستشري وتتسع وتعمق حتى درجة المأساة؟

ألا يعني ازدياد عبادة المال على حساب عبادة الآلهة تقوية مركز الرأسمال المتراكم على حساب الافقار المتراكم وفق قول المسيح: لا تعبدوا ربين، الله والمال؟ ونعني هنا الافقار المطلق والنسبي معاً على النطاق العالمي.

وأما تعثر التنامي في بلدان النموذج السوفييتي فكان نسبياً، ولأسباب أكثرها ذاتي، لأن معظم البلدان ذات النموذج السوفييتي أو الاشتراكي غير الكامل أو كلها حققت تنامياً مطلقاً، وبعضها انتقل إلى مرحلة أعلى والأزمة التي أدت إلى الانهيار فيها ناجمة عن الجمود، والبيروقراطية واللصوصية وغيرها من الشروط الذاتية المرتبطة بالحكم والأحزاب فيها، وفقدان الحوافز المادية الموضوعية لزيادة الانتاجية والإستناد إلى الحماسة والوعي فقط في الفترة الانتقالية بين المرحلتين الاشتراكية والشيوعية، كما ذكرنا في السابق.

وهذا يعني ان التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج لم يحلّ في البلدان ذات النموذج السوفييتي أو الاشتراكي غير الكامل. كانت القوى المنتجة تتقدم أو تتأخر، وأما الانتاج فكان يقل ويتراجع أو يتلف أكثره لعدم وجود مصلحة فعلية مباشرة في الحفاظ عليه إلا عند فئة ضئيلة جداً من ذوي الوعي والحس الاجتماعي الاشتراكي. والأمثلة كثيرة جداً على ذلك، ونجدها ليس فقط في النموذج السوفييتي وإنما ايضاً في النموذج الرأسمالي المعروف عندنا في لبنان بالقطاع العام. كان النموذج السوفييتي صورة كاريكاتورية ومأساوية للنموذج الرأسمالي، كما وصفه برنارد شو: غزارة في الانتاج وسوء في التوزيع... إلى جانب ضآلة الانتاج في بعض فروع الاقتصاد وسوء في معاملة القوى المنتجة وعدم تجديد التنقية، تحت شعار خاطىء يقول ان الآلة

لا تشيخ في الاشتراكية، هذا إلى جانب الدكتاتورية وأعمال القمع على النطاقين الضيق والواسع.

ورأيي ان المقولة الماركسية القائلة بازدياد التناقض بين القوى المنتجية وعلاقات الانتاج، ومظهرها الأساسي الصفة الاجتماعية للسلعة والفردية على وسائل الانتاج، إنما هي مقولة صحيحة، وهي السوسة الكبرى التي تنخر في ماهية النظام الرأسمالي الذي يزيد الأزمات تفاقماً ويعقّد العلاقات لمصلحة الاحتكارات وليس بوسعه إلا زيادة الافقار كما بينا، ويسهر على بقاء هذا الوضع العالمي المزري، مما يجعل تغييره حتمياً بفعل الظروف الموضوعية وعند توافر تغييره إلى النموذج السوفييتي المنهار أو إلى ما يشبهه، لأن هذا النموذج لم يحل أيضاً، وباستمرار، التناقضات بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج وتوزيع الانتاج، بل قوّى هذه التناقضات بممارسة البيروقراطية وبرفضه الحوافز المادية لزيادة الانتاجية، فكان انهياره أسرع من النظام الرأسمالي لأنه أكثر ضعفاً وأرخص عوداً وأقل تجربة ومرتكزات وأسساً.

ولا ننسى أن التناقض سيظل قائماً بين القوى المنتجية وعلاقات الانتاج في جميع الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على السواء. وتكمن المهمة في طريقة حل التناقضات القائمة والتناقضات التي ستنشأ بعدها، ثم التناقضات التي ستنشأ بعدها وباستمرار، حيث أن مهمة القيّمين على هذه الأنظمة حل التناقضات الموجودة دوماً وباستمرار، وبطرق عقلانية وأقل وحشية وقمعية، وليس نفي هذه التناقضات تعني الحركة ونفي الحركة ممتنع. ولعل في نفس هذا التناقض في البلدان ذات النموذج السوفييتي من أسباب الانهيار الرئيسية، حتى وصل الأمر بهم ـ وباتباعهم في كل مكان ـ إلى تحريم المعارضة في الرأي والفكر (وهو تناقض) تحت طائلة القتل والنفي والطرد والتنكيل والاتهامات المختلفة، وطرحوا عملياً وحتى نظرياً طريقة الاسكافي في احدى القرى، إذ كان لا يملك سوى قالب واحد لصنع الأحذية فمن كانت رجله مطابقة للقالب انتقل حذاء جديداً، ومن لا تطابق رجله القالب الوحيد فليسر حافياً إلى اقفاص الاتهامات وأقبية التعذيب والموت والحرمان

ومعسكرات السخرة والعبودية.

والسبب الأساسي في بقاء النظام الرأسمالي بعد قضائه على النظام الاقطاعي أكثر من بقاء النموذج السوفييتي ـ وهو نموذج اشتراكي تنقصه مقومات الحياة الأساسية ـ إن في الرأسمالية حافز مادية لزيادة الانتاجية وهي، في صورة عام، تنقسم إلى قسمين: موجب وسالب.

فالموجب ان الرأسماليين، أو مالكي وسائل الانتاج، يحفزهم تحقيق القيمة الزائدة إلى رفع الانتاجية وتحسينها تحقيقاً لأقصى ما يمكن من الارباح، فيكون هذا الحافز المادي هو الأساسي والرئيسي. وأما السالب مع بعض الايجابية، فخاص بالعمال المنتجين، إذ هم مضطرون إلى رفع الانتاجية أو انضموا إلى جيش المتعطلين عن العمل، والبطالة ظاهرة دائمة في الرأسمالية وعانوا الفقر وحتى المجاعة، إلى أن بعضهم يأمل بزيادة الأجر على حساب صحته وتدني الحد المتوسط لسنوات حياته فيزيد من انتاجه، وثمة قلائل جداً من العمال ممن يتحولون إلى أغنياء أو اصحاب عمل عن طريق المضاربة واستخدام اقتصاد السوق وممارسة ضروب من الاحتكار، مما يشكل لهم حافزاً مادياً مباشراً لرفع الانتاجية.

هذه الحوافز المباشرة جميعها كانت مفقودة عملياً في النموذج السوفييتي. وهي مفقودة نظرياً في علم الاقتصاد الاشتراكي، حيث أن القانون الأساسي للرأسمالية هو القيمة الزائدة (العادية أو الاحتكارية) يقابله في الاشتراكية تلبية حاجات الاستهلاك المتنامية، وهو قانون يتطلب وعياً في مستوى رفيع جداً حتى ينفذ العمال مفهوم العمل الشيوعي كما حدده لينين بقوله أن المنتج يبذل الجهد ذاته في الانتاج بصرف النظر عن المستهلك، وسواء أكان من أهله الأقربين أو من البعيدين الآخرين.

وإذا سلمنا بصحة هذا المفهوم للعمل في النظام الشيوعي حيث يسود شعار: من كل حسب قدرته ولكل حاجته، فهل هو صحيح في النظام الاشتراكي ـ أو في المرحلة الانتقالية من الاشتراكية إلى الشيوعية ـ حيث يسود الشعار الآتي: من كل حسب عمله ولكل أجره؟

الحل الصحيح في رأينا سابقاً واليوم، هو كما يلي: في المرحلة الانتقالية من الاشتراكية إلى الشيوعية ينبغي أن يسود الحافز المادي المباشر لرفع الانتاجية مع تعميق عملية الوعي ورفع مستواها، وفي الشيوعية ينبغي أن يسود الوعي كمفهوم العمل الشيوعي مع ابقاء الحافز المادي المباشر قائماً، لأن الإنسان مهما بلغ وعيه من ارتفاع وسمو، يظل الحافز المادي المباشر ـ إلى جانب المعنوي عند البعض ـ هو الدافع لزيادة الانتاجية، ليس من اهتمام بالانتاج ووسائل الانتاج، إلا إذا كانت ثمة مصلحة مادية (وروحية) من ذلك، فأين كل هذا في الأنظمة ذات النماذج السوفييتية؟ بل أين هو في ايديولوجية الاشتراكية العلمية؟

* هل يمكن القول مع بعض المدارس الفكرية، ان الاشتراكية لا يمكن أن تبنى إلا في بلدان بالغة التطور الرأسمالي، وان حرق المراحل ـ كما في حدث في الاتحاد السوفييتي ـ والنزعات الارادوية التي دفعت بهذا الاتجاه لا يمكن أن تغني عن ضرورة نضوج التطور الرأسمالي؟

** المعروف أن أي نظام اجتماعي جديد تولد أسسه ومرتكزاته الموضوعية في النظام الذي يسبقه أو الأنظمة السابقة المؤثرة فيه كل منها بمقدار. فالنظام العبودي مثلاً ولدت أسسه في المشاعية البدائية، والنظام الاقطاعي وجدت أسسه في النظام العبودي ـ والرأسمالية في الاقطاعية والاشتراكية في الرأسمالية، والشيوعية ستنشأ أسسها في الاشتراكية ثم، وبصورة متتالية ستنشأ أسس المراحل الشيوعية المستمرة والمتعاقبة في المراحل السابقة، وصولاً إلى ما يسميه المتفائلون والطاباويون نظام البشر ـ الآلهة، أو إلى ما يسميه المتشائمون نظام الأبالسة والقضاء على هذا الكوكب.

وهذا يعني أن في كل نظام جديد عناصر أو بقايا للأنظمة السابقة له تزول آثارها رويداً رويداً. ولكن هذه الآثار لن تمحى نهائياً ما دام العقلاني والواقعي تركيبة جدلية من الايجابي في الجديد والقديم معاً، في الحال والتراثي، في الحاضر والتاريخي.... الخ، على عكس اللاعقلاني واللاواقعي، حيث هو تركيبة جدلية من السالب قديماً وحديثاً.

ولهذا، فإنه لبناء الاشتراكية ينبغي وجود الأسس الواقعية والموضوعية (إلى الشروط الذاتية الكافية من أحزاب وقوى منظمة) في الرأسمالية، ولا يشترط لذلك، بادىء ذي بدء، وصول التطور الرأسمالي إلى حده الأقصى، إذ تكفي درجة معينة منه لتكون كافية من أجل نجاح الثورة الاشتراكية التي ستبني الاشتراكية في ظلها بصورة أسرع مما لو جرى نشوء أسس الاشتراكية ومرتكزاتها المتطورة جداً ضمن النظام الرأسمالي.

ولولا ان درجة معينة من التطور الرأسمالي غير كافية وتتطلب الحاجة بلوغ التطور الرأسمالي حده الأعلى لما نجحت ثورة اكتوبر، والثورة الصينية، وغيرها، مع العلم أن ما قضى على الثورات الاشتراكية في أوروبا ويهدد الآن كامل منجزاتها هو على الأغلب العامل الذاتي، والنماذج غير الاشتراكية المطبقة فيها، ومحاولة حرق المراحل في بعض الحالات، حيث زعمت القيادات السوفييتية، وأكثرها من عناصر المخابرات، انه تم نهائياً بناء الاشتراكية وبدأت مرحلة بناء الشيوعية، ثم ظهر ان هذه القيادات لم تنشىء حتى أسس الاشتراكية على وجه سليم، وأن أنظمتها أنظمة قمع ومخابرات لا أنظمة اشتراكية حتى ولا ديمقراطية، فكان ان حدث ما رأينا ونشهد.

أما بعد حدوث الثورة الاشتراكية في بلد واحد أو بلدان عدة والبدء ببناء الاشتراكية فيمكن، بتدخل هذه البلدان ومساعدتها، حدوث الثورة الاشتراكية في بلدان متخلفة وبناء الاشتراكية فيما بعد من غير وجود مرتكزات وأسس كافية في نظامها الرأسمالي أو حتى بدون سيادة الرأسمالية فيها بشكل كامل أو حتى بدون وصولها إلى مرحلة النظام الرأسمالي.

هذه النظرية اللينينية ـ حول انتصار الثورة الاشتراكية في بلد واحد، وحول اجتياز المراحل لا حرقها بعد نشوء دولة أو مجموعة دول اشتراكية ـ ثبتت صحتها في منغوليا مثلاً، إذ نشأت فيها ثورة اشتراكية ثم جرى البناء الاشتراكي. وهي لما تصل إلى الرأسمالية وذلك بمساعدة الاتحاد السوفييتي وغيره. ثم انهار النظام «الاشتراكي» في الاتحاد السوفييتي وبلدان أوروبا الشرقية إلا في منغوليا، حيث فاز الاشتراكيون هناك بالأكثرية النيابية الساحقة

في انتخابات متعددة وديمقراطية وظلت عملية بناء الاشتراكية سائرة حتى الآن. وثمة بعض الأمثلة المشابهة في بلدان متخلفة حققت الثورة الاشتراكية هي تبني الاشتراكية الآن في أوضاع معقدة جداً، نذكر منها كوبا والفيتنام وكمبوديا إلى حدود.

وهكذا نرى انه يمكن ولا يمكن الاستغناء عن نموذج التطور الرأسمالي في سبيل الوصول إلى الاشتراكية، أنه لا يمكن في حالات ويمكن في حالات أخرى، وما جعل النماذج السوفييتية تنهار ليس حرق المراحل ولا النزاعات «الارادوية» في املاء الواقع والتاريخ، بل لأن الشروط الذاتية لم تكن على درجة كافية، ولأن المبادىء الاشتراكية جمّدت و«جبصنت» فتخلفت والعالم يتطور، ولأن أبرز القيادات في موسكو وسائر العواصم التابعة لها نفذت مخطط الرأسمالية واليهودية العالمية، فكان النجاح، مع الأسف حليفها وحصادها حتى الآن.

ورأيي ان الاشتراكية معرضة إلى أخطار شديدة في الصين ومنغوليا وكوبا وغيرها، إذا لم تطور القيادة عملها والمبادىء الاشتراكية تبعاً للتجارب الكثيرة السالبة والموجبة ولتطور الواقع ذاته. فالجمود يعني الموت مثله مثل حرق المراحل تماماً. وأحد مرتكزات المادية الجدلية يقول ان التجربة محك الحقيقة، اضافة إلى صدقية من قال ان النظرية رمادية اللون أما الحياة فهي خضراء دائماً وأبداً.

ولدى كوبا نموذج حي في هذا المجال يتعلق بنشوء الحزب الاشتراكي فيها خلافاً لما جاءت به النظرية، فالمعروف والمسلم به ايديولوجياً ان الحزب هو الذي يقود وينشىء الثورة الاشتراكية، أما في كوبا فإن الثورة هي التي قادت الحزب وأنشأته بعد انتصارها بسنوات عدة (حوالي ست أو سبع سنين). وقد بحثنا هذه المسألة باستطراد نسبي في بعض مؤلفات صدرت لنا منتصف الستينات للبرهنة على اتباع الخرائط الجاهزة، مهما كانت الأوضاع ومهما تغيرت الأشياء ـ وهي متغيرة باستمرار ـ ضرب من الدوغماتية والكهنوتية، فكانت ردة الفعل ضدنا من قيادات جامدة ما تزال مستمرة حتى الآن دليلاً

على صحة القول المأثور: من شب على شيء شاب عليه، حتى ولو زعم انه اتعظ من نفسه وسواه ومن التجارب المريرة له وللآخرين.

* وماذا عن العالم الثالث؟ وهل أصبح مهمشاً، وتحول الجدار الحديدي، كما يقولون، بين الشمال والجنوب بدلاً من الشرق والغرب؟ وماذا يمكن أن يكون إسهام حركات التحرر والقوى التقدمية في «العالم الثالث في مجال بلورة وتطوير ماركسية اليوم؟

** لا نستطيع القول ان العالم الثالث أصبح مهمشاً، وان كانت مشكلاته وأدواره ونفوذه في السياسة العالمية قد خفت وضعفت نتيجة فقدانه قوى عظيمة كانت تسانده وتؤيده وكان هو يساندها ويؤيدها، والعدو المشترك واحد. وجاءت حرب الخليج، برغم أخطاء القادة العرب، دليلاً على أن العالم الثالث يتعرض إلى هجمة شرسة من الامبريالية واليهودية العالمية بعدما ازدادت قواهما وتوطدت نتيجة انهيار القوى العظمى الأخرى وانحصار «العظمة» في معسكر الامبريالية واليهودية العالمية الممثل بالولايات المتحدة واسرائيل وامتداداتهما هنا وهناك.

إلا ان هذا شيء وبقاء الظروف الموضوعية المولدة للتناقض، سواء داخل الدول الرأسمالية وبلدان العالم الثالث أو فيما بينها، شيء آخر، وتحول ما يسمى الستار الحديدي الذي كان يطلق على العلاقات بين القوتين العظميين أو بين الشرق والغرب إلى ما «بين الشمال والجنوب» له ما يبرره، ولا سيما انه كان في السابق أيضاً بين الشمال والجنوب أو بين الأغنياء والفقراء، وذلك لأن نظرية لينين حول التحالف بين العمال والفلاحين وتالياً بين المعسكر «الاشتراكي» سابقاً والعالم الثالث، تعني أن ثمة «ستاراً حديدياً» كان قائماً بين الشمال والجنوب، والجديد اليوم إن جزءاً من هذا «الستار الحديدي» القوي بين الشرق والغرب قد انهار مؤقتاً، فكثرت المصاعب أمام العالم الثالث وازدادت خطورة دوره على النطاقين الاقليمي والعالمي واصابه الكثير من «التهمش» والتأثير.

ومما يقاوم مساعي الامبراطورية الاميركية المدعمة، حتى الآن، باليهودية العالمية ـ لتهميش العالم الثالث تماماً ـ وربما بلدان غنية مثل الدول الأوروبية واليابان ـ التناقضات العميقة بين دول الشمال نفسها، اضافة إلى التناقضات المماثلة بين دول الشمال والجنوب بين دول الجنوب نفسها، ومعظم هذه التناقضات ـ أو كلها ـ مرشح للاحتدام إلى درجة التناقض التناحري، ما دام هذا التناقض المولد من الصراع القاتل بين العمل والرأسمال في ازدياد واحتدام، ويزيده قوة واحتداماً وجود قوى اشتراكية ذات تأثير كبير في العالم الثالث اليوم (وهو مرشح ليؤثر أكثر في العالم الرأسمالي نفسه ولاسيما في اليابان والقارة العجوز)، ونعني بهذه القوى الصين الشعبية والبلدان الاشتراكية الأخرى هنا وهناك والقوى الباقية أمينة على المبادىء الاشتراكية في بلدان النموذج السوفييتي المنهار وفي جميع بلدان العالم على السواء.

المنطق الجدلي، بل كل منطق بإطلاق، يقول ان السبب ما دام موجوداً، فالنتيجة المماثلة ستظل موجودة، وما ظل التناقض التناحري قائماً بين العمل والرأسمالي فالصراع التناحري ـ كنتيجة له ـ سيظل قائماً، ما يتغير الجانب الكمي منه، أما الكيفية فواحدة. ومعروف جدلياً ان التراكمات الكمية تؤدي إلى نوعية جديدة وبالعكس وفق القانون الجدلي الأساسي، «التراكم الكمي والتحول إلى كيفية جديدة وعلى العكس»، إلى جانب القانونين الأساسيين الآخرين: «وحدة المتضادات وصراعها» و«نفي النفي» ومقولات الديالكتيك الأساسية.

والجديد، بعد انهيار بلدان النموذج السوفييتي، انتقال المركز الثوري الأساسي الممثل بأول بلد انتصرت فيه الثورة الاشتراكية، إلى الصين الشعبية، ونأمل أن لا ينهار النموذج الصيني كزميله السوفييتي فتصاب القوى المؤيدة للصين الشعبية تأييدها للاتحاد السوفييتي قبلاً بضربة قاسية جديدة تضعفها وتزيد من عربدة الامبراطورية الامبريالية ـ اليهودية وتحكمها وطغيانها وجرائمها. فعلى المركز الثوري الأساسي الجديد. الصين الشعبية، أخذ العبرة والدروس مما حدث، وعلى مؤيدي موسكو ضد بكين في السابق

أخذ العبرة والدروس كذلك، ما يعني أن الجبهة العالمية المعادية للامبراطورية الامبريالية ـ اليهودية والتي تضم جميع القوى المتقدمة من دعاة التغيير وخصوم الاستغلال والاستثمار والاستكبار والطغيان والاحتكار.. الخ، مدعوة إلى التفاهم والتضامن لتحقيق المقولة الاشتراكية الشهيرة: ليس حراً ذلك الشعب الذي استعبد غيره، وذلك بالرغم من جميع خلافاتها ووجهات نظرها وتناقضاتها اللاتناحرية أصلاً وفي العمق.

وإذا سأل سائل عن هذه الجبهة: إلى أين؟.. أجبنا ببساطة: ما دامت الرأسمالية في مرحلتيها الحرة والاحتكارية لن تحل التناقضات في المجتمع بل تزيدها احتداماً وعمقاً وصراعاً وعنفاً، فإن الحاجة إلى بديل يبدو ملحاً ومنطقياً وواقعياً تماماً. ولما كان النموذج السوفييتي الذي سمي اشتراكياً قد فشل فإن الحاجة إلى بديل يبدو ملحاً ومنطقياً وواقعياً. وهذا البديل، في نظرنا، هو الاشتراكية الإنسانية الديمقراطية المسترشدة بمبادىء الاشتراكية العلمية وحقيقتها العامة، وبكل ما قدمته الحضارة البشرية من ايجابيات، فتزيد منها وتكثر وتتعظ بالسلبيات فتنقص منها وتنفي ضررها واذاها، ليأتي بناؤها أرسَخ اساساً وأقوى قاعدة وأجمل منظراً، منوهين، في هذا المجال، بمفهوم التطور الجدلي وبمقولة هيغل الصحيحة تماماً: كل ما هو عقلاني واقعي، وكل ماهو واقعي عقلاني، مفرقين بين الواقعي (العقلاني) والموجود الفاقد مبررات وجوده وضرورته، برغم انه موجود ويبدو على شيء كثير أو يؤبه له من المنعة والقوة، حيث مصيره النفي في المستقبل، وأما الواقعي والعقلاني فمرشح للنجاح والانتصار والتشخص الواقعي في الحياة، حتى ولو لم يكن موجوداً أو على شيء من الضعف في الوقت الحاضر، وذلك لأن كل واقعي وعقلاني سيوجد حتماً لامتلاكه مبررات وجوده وضرورته.

وظني، بل يقيني، إن هذه المعادلة أو هذا الاشكالية، تصح على العلاقة الجدلية بين الاشتراكية الإنسانية الواقعية العقلانية والرأسمالية الاحتكارية المتبربرة الفاقدة، إلى درجة كبيرة، مبررات وجودها وضرورته في مسيرة الحضارة الإنسانية والتطور البشري.